دولة الإمارات العربية المتحدة
كلية الدراسات الإسلامية والعربية بدبي

مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية

مجلة علمية محكمة

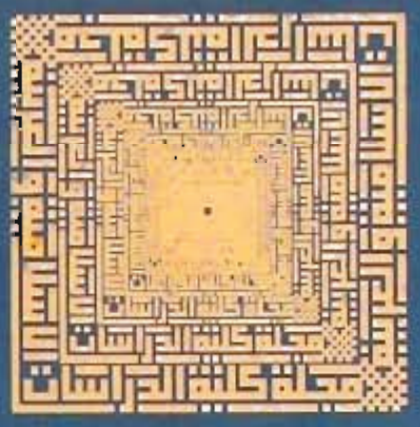

38

العدد الثامن والثلاثون

السنة الثامنة عشرة

السنة الثامنة عشرة

www.islamic-college.ae
iascm@emirates.net.ae

اقرأ في هذا العدد

الزكاة في مال الصبي والمجنون - دراسة فقهية مقارنة

زكاة أسهم الشركات - نظرات في التطبيق العملي

الحافظ القاسم البِرْزَالي وجهوده في الحديث والتاريخ

البعد الحضاري للتسامح الإسلامي مع أهل الكتاب

التذكار في قراءة أبان بن يزيد العطّار-دراسة وتحقيق وتعليق

الأثر والأثر العكسي للفكر الاستشراقي في النحو والصرف العربي

روابط الجملة عند النحويين القدماء

مخارج الحروف وصفاتها لابن الطحّان

الأثر النفسي لحذف الأجوبة في القرآن الكريم

1430هـ /2009 م

مَجلَّـــة
كُلِّيَّةِ الدِّراساتِ الإسلاميَّةِ والعربيَّةِ

مجلة علمية محكَّمة

نصف سنويَّة

العدد الثامن والثلاثون
ذوالحجة ١٤٣٠ هـ - ديسمبر ٢٠٠٩ م

المشرف العام

د. محمد عبدالرحمن
مدير الكلية

رئيس التَّحرير

أ. د. أحمد حساني

هيئة التَّحرير

أ. د. محمد عبدالله سعادة
أ. د. عمر عبد المعبود
أ. د. عبد العزيز صغير دخان
د. أسماء أحمد العويس

ردمد: ١٦٠٧-٢٠٩X

تفهرس المجلة في دليل أولريخ الدولي للدوريات تحت رقم ١٥٧٠١٦

المحتويـــــــــات

- **الافتتاحية**

رئيس التحرير..... ١٤-١٥

- **الزكاة في مال الصبي والمجنون - دراسة فقهية مقارنة**

أ. د. محمد الزحيلي..... ١٩-٨٨

- **زكاة أسهم الشركات - نظرات في التطبيق العملي**

د. روحية مصطفى الجنش ٨٩-١٥٨

- **الحافظ القاسم البِرْزَالي وجهوده في الحديث والتاريخ**

د. سمير محمد عبيد نقد..... ١٥٩-٢٠٨

- **البعد الحضاري للتسامح الإسلامي مع أهل الكتاب**

- دراسة موضوعية في الفكر الإسلامي

د. عمر وفيق الداعوق..... ٢٠٩-٢٧٨

- **التذكار في قراءة أبان بن يزيد العطّار-دراسة وتحقيق وتعليق**

د. الشريف ولد أحمد محمود..... ٢٧٩-٣٢٨

- **الأثر والأثر العكسي للفكر الاستشراقي في النحو والصرف العربي**

د. منيرة عبدالله ناصر الفريجي..... ٣٢٩-٣٩٠

- **روابـط الجملة عند النحويين القدماء**

د. الشريف ميهوبي..... ٣٩١-٤٤٨

- **مخارج الحروف وصفاتها لابن الطحّان**

-قراءة في المحتوى والمنهج والمصطلح

د.محمود سالم خريسات..... ٤٤٩-٤٩٤

- **الأثر النفسي لحذف الأجوبة في القرآن الكريم**

د.حفظي اشتية..... ٤٩٥-٥٤٢

البعد الحضاري للتسامح الإسلامي مع أهل الكتاب

(دراسة موضوعية في الفكر الإسلامي)

د. عمر وفيق الداعوق

أستاذ العقيدة والأديان المشارك في

كلية الدراسات الإسلامية والعربية- دبي

ملخص البحث

إن التاريخ الإنساني يشهد للشعوب والأمم ما لها وما عليها إذ لكل أمة منها دينها وقيمها وتراثها، ومن حق شعوبها أن تفتخر بمبادئها وشعاراتها، ومن حق المسلمين ـ كذلك ـ أن يفخروا بدينهم ومبادئهم الثابتة بالتجربة أنها ـ وحدها دون غيرها ـ القادرة على البقاء والنقاء مهما أثير حولها من شبهات أو ترهات.

فمن القيم الخالدة التي يأمر الإسلام أتباعه بها خلق التسامح بشكل عام، ومع أبناء الديانات الأخرى على وجه الخصوص، فمن ذلك ما جاء في قوله تعالى موجها خطابه إلى المسلمين كافة: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ ﴾ الممتحنة ٨.

ومن روح التسامح دعا النبي محمد ﷺ أصحابه وأتباعه إلى التحلي بهذه القيمة الأخلاقية وتطبيقاتها في وقائع أحوالهم، وقد سار المسلمون وفق الهدي النبوي، فأعطوا بذلك المثل الأعلى على الأمة الوسطى، الشاهدة على الناس إلى يوم القيامة.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء وصفوة المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، ثم أما بعد :

فلا بد من الاعتراف ـ بداية ـ بأن العصر الحاضر يُعدُّ بحق الشاهد الأكبر على جميع الأفكار والفلسفات القديمة والحديثة على السواء والتي هي نتاج الفكر الإنساني عبر تاريخه الطويل ، كما أن أجيال الأمم الحالية هي الوريث المنكب على هذا التراث ، و في زحمة المذاهب المعاصرة يبقى الفكر الإسلامي بقيمه الحضارية الناصعة مغيباً من قبل خصومه ، خاصة ما يتعلق منه بجانب التسامح مع أهل الكتاب ، وتبرز أهمية هذا الموضوع من خلال إلقاء الضوء على القيم الحضارية في الإسلام عامة ، وفضيلة التسامح مع أهل الكتاب بصفة خاصة .

إن اعتراف المسلمين بالرسالات السابقة هو دعوة صريحة للتعايش السلمي مع أهل الكتاب ، وهو الجانب العملي للتطبيق الحضاري المنبثق من قوله تعالى:﴿ ..وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ .. ﴾ ، وإجلاء هذه الحقيقة ـ في وقتنا الحاضر ـ بأمانة علمية ؛ كفيل برد بعض التهم الظالمة عما لحق المسلمين من حيف وهضم للحقوق من قبل أعدائهم .

ولا بد من الاعتراف كذلك بأن المجتمعات الغربية اليوم وإن بدت بثوبها العلماني الظاهري غير مكترثة بالدين ؛ وهي بالتالي تدعي الحضارة والرقي، لكنها في تعاملها مع المسلمين تسفر عن وجهها الحقيقي وتظهر العصبية الدينية من خلال تصرفاتها ، ونتائج أعمالها ، وما فلتات لسان بعض قادتها سوى دليل على هذا الأمر، وهو ما يؤكد كذب الأقوال و زيف الادعاء.

إن خطورة هذا الجانب تتجلى من خلال استخفاف خصوم الإسلام أولا

بالمسلمين ، والتنكر لحضارتهم ، وما ينتج عنه من أثر على نفوس أبناء الأمة من ضعف وهوان وإبقائهم رهنا لهذا الوهم ثانيا ، بل وغياب الوعي بهذه الحقيقة عن كثير من أولي الأمر .

لهذا السبب ولغيره كان اختيار خلق التسامح حافزا للكتابة حوله ، تنبيها، وتحفيزا لاستنهاض الهمم ، ومن أجل ذلك توخى البحث الجدية من خلال الاعتماد على المصادر والمراجع الأصلية التي عالجت الموضوع باهتمام ، كما تبنى هذا البحث دعوة أهل الكتاب لإعادة النظر في تعاملهم مع القيم الحضارية في الإسلام وخاصة التسامح المبني على الاحترام ، وهذا لا يمكن أن يكون إلا من خلال الاعتراف بالرسالات السماوية و بحق الاختلاف لا النزاع وإقامة الحروب بين الناس ، وهذا ـ أيضا ـ لا يمكن أن يقوم إلا وفقا للحوار بين الشعوب والتعارف بينها .

ولا بد من التنويه والإشارة إلى الدراسات السابقة لهذا الموضوع فمن ذلك مثلا ما كتبه علماؤنا في العصر الحديث مثل : كتاب التعصب و التسامح، للشيخ محمد الغزالي رحمه الله تعالى ، وحصوننا مهددة من داخلها ، للدكتور. محمد محمد حسين ، والإسلام والغرب ، لأبي الحسن الندوي ، وله أيضا الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية، ومذاهب فكرية معاصرة ، للشيخ محمد قطب ، إلى غيرها من هذه المؤلفات التي بينت صراع المسلمين مع خصومهم سواء كان ذلك من الوجهة التاريخية أو من ناحية الحروب التي قامت بينهم .

أما هذه الدراسة فقد اعتمدت على إبراز جانب التسامح مع أهل الكتاب بصفة خاصة في مقابل الهمجية التي اتسم بها تحالف الخصوم ضد المسلمين ، كما هدفت إلى بيان محاسن الإسلام في تعامله مع أهل الكتاب بشهادة المنصفين

من أحرار الفكر الاستشراقي بما يرقى إلى المستوى الحضاري الذي نفتقر إليه اليوم، ولا نَنْسَ أن المحاور الإسلامي اليوم بحاجة ماسة إلى الإلمام بجوانب هذا الموضوع خاصة فيما يتعلق بما يسمى « حوار الأديان ».

ويشتمل هذا البحث على : مقدمة ، وتمهيد ، وفصلين ، وخاتمة:

المقدمة : وفيها : أهمية الموضوع ، وخطورته ، وأسباب اختياره .

التمهيد : تحديد مصطلحات البحث ، و ومنهج الإسلام في التسامح والجوانب المدروسة منه .

أولا ـ تعريف الحضارة.

ثانيا ـ : تعريف التسامح.

ثالثا: منهج الإسلام في التسامح مع أهل الكتاب .

الفصل الأول : الإسلام دين الحضارة والتسامح .

المبحث الأول : خصائص الإسلام الحضارية

المبحث الثاني : فضيلة التسامح الإسلامي عامة ، ومع أهل الكتاب خاصة .

المبحث الثالث : النصوص الشرعية الدالة على التسامح .

المبحث الرابع ـ من التسامح: ضمان الإسلام للحريات:

أولا : الحرية الشخصية

ثانيا :الحرية الدينية:

أ ـ حريتهم في إقامة الشعائر ، والدعوة إلى دينهم فيما بينهم.

ب : تطبيقات المسلمين في هذا الجانب.

الفصل الثاني : شهادات أعلام الفكر الإنساني الحر على سمو الحضارة الإسلامية و سماحة الإسلام وموقف أهل الكتاب منه :

المبحث الأول : شهادات المؤرخين الغربيين المنصفين على سماحة المسلمين مع غيرهم.

المبحث الثاني: موقف أهل الكتاب من القيم الحضارية للتسامح في الإسلام.

المحور الأول : ما كانت عليه أوروبا من جهل في المضمار الحضاري.

المحور الثاني : الوجه المشرق للحضارة الإسلامية في تسامحها، وأثرها على الغرب.

المبحث الثالث ـ تنكر أهل الكتاب للقيم الحضارية في التسامح الإسلامي ، وفيه :

أولا ـ ما لقيه المسلمون من خصومهم.

ثانيا ـ كيفية تلافي الأخطاء ، واستخدام الوسائل الحديثة في نشر القيم الإسلامية.

الخاتمة : وفيها أبرز نتائج البحث.

التمهيد

من المفيد الوقوف على المعنى اللغوي لمفهوم الحضارة ومن ثم التعرف على معنى التسامح حتى نستطيع الإلمام بالبعد الحضاري للموقف الإسلامي في التسامح مع أهل الكتاب .

فالمقصود بالبعد الحضاري :أن الإسلام الحنيف أمر النبي ﷺ وأمته بالتمسك بالمنهج القويم للسير في هذه الحياة الدنيا، تمهيدا للآخرة ، وأعطى التوصيات والتعليمات لأتباعه بمعاملة أهل الكتاب بما يمليه عليهم هذا الدين ، ولهذا نجد الأمة قد اجتهدت للوصول إلى هذه الغاية ، فكان نتاج ذلك حضارة فاقت حضارات الأمم ، باعتراف كبار المؤرخين والمنصفين الشرقيين والغربيين، وعليه فإن مفهوم الحضارة في الإسلام يختلف كليا عن مفهوم الحضارات الأخرى من حيث خصائصه الفريدة ، وتعاليمه المفيدة .

أولا ـ تعريف الحضارة: في اللغة من فعل حضر على وزن قعد والحضارة بفتح الحاء وكسرها :سكون الحضر، والحضر والحضرة والحضرة والحاضرة خلاف البادية وهي المدن والقرى والريف سميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار ومساكن الديار التي يكون لهم بها قرار [1]

أما في الاصطلاح فقد عرفها ابن خلدون بعدة تعريفات ، منها أنها غاية العمران وتتصل بالتفنن بالترف والكلف بالصنائع المستعملة في وجوهه...[2]

ومن التعريفات الأخرى قولهم : الحضارة هي نتاج الإنسان المدني الاجتماعي

١- لمصباح المنير في غريب الشرح الكبير ، أحمد الفيومي ، ١ / ١٥٢ ، .: مصطفى السقا ، المطبعة الأميرية، مصر. ولسان العرب ، أبو الفضل جمال الدين بن منظور، ٤ / ١٩٧ ، دار الفكر ، دار صادر ، بيروت لبنان .

٢- معالم الحضارة في الإسلام ، عبد الله علوان ، ص ٧ ، دار السلام ، ط: ٢، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٩٤م، بيروت، لبنان.

بخصائصه الفكرية والروحية والوجدانية والسلوكية تحقيقا لأهداف أمته ، وما ارتضته لنفسها من قيم ومثل ومبادىء[٣]

و يعرفها الدكتور أحمد شلبي بقوله : هي الإنجازات التي تحققت للبشرية أو حققتها البشرية ، من خلق وسلوك ومعارف[٤]

وعليه فلا بد من توفر جميع هذه المعاني حتى تصبح الأمة متحضرة ، وإلا فمهما كان التقدم العمراني والتقني كبيرا لأي أمة في التاريخ ؛ فإنه لا يُعَدُّ حضاريا إلا إذا تحققت بقية العناصر من آداب ودين وخلق وسلوك .

ثانيا ـ : تعريف التسامح

لغة : مأخوذ من السماح والسماحة ، وهو الجود ، والمسامحة : المساهلة، وتسامحوا أي: تساهلوا [٥]، وسمح ككرم فهو سمح ، وسمحا : جاد وكرم [٦].

واصطلاحا: التسامح بهذا المعنى يجمع بين الجود والكرم والمساهلة وكلها معان سامية ترتاح النفس البشرية إليها ، مما يمهد سبل الاستقرار في المجتمع والقدرة على الأخذ والعطاء بين أفراده دون عناء ، وصولا إلى إقامة التعارف والتآلف بين الشعوب .

فإذا أضفنا هذه المعطيات الراقية إلى مفهوم التسامح في الإسلام بشكل عام أمكننا تمييز هذا الدين عن غيره من الملل والنحل ، ووقفنا بالتالي على خصائصه الثابتة .

٣- مقدمة ابن خلدون ، عبد الرجمن بن خلدون ، ص ٢١٦ ، ت: خليل شحادة ، وسهيل زكار ، ط : ١، ١٤٠١ ـ ١٩٨١م، دار الفكر بيروت ، لبنان . ،

٤- موسوعة الحضارة الإسلامية د. أحمد شلبي ١/ ٢٠ ، ط: ٨ ، ١٩٩٢م ، مكتبة النهضة المصرية ، مصر.

٥- الصحاح ، تاج اللغة وصحاح العربية ، إسماعيل بن حماد الجوهري ، ت: أحمد عبد الغفور عطار ، ١ / ٣٧٦.

٦- القاموس المحيط ، الفيروز أبادي ، ١ / ٢٢٩، دار الفكر .

ويزداد هذا المفهوم رسوخا وأصالة حينما نعي الرسالة التي جاء بها الإسلام كدين للبشرية جمعاء ، حيث لا تمايز فيه بين الناس ، إلا بقدر قربهم من خالقهم ، وأتقاهم له ، عنوانها العدل ، وقهر الظلم ، ونشر مبادىء التعايش بين الشعوب ، قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ (٧).

ويقول المصطفى ﷺ : «ألا لا فضل لعربي على أعجمي ، ولا لعجمي على عربي ، ولا لأحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى»(٨).

نستطيع بعد ذلك أن نفهم المراد بالبعد الحضاري للتسامح في الإسلام، بل الجانب العملي منه وهو: كيف رقى النبي ﷺ أمته نحو مجامع الخير للآخرين ، وتحويلها إلى واقع يظهر في الأقوال والأفعال.

والمسلمون العاملون يعلمون هذه المبادىء ، ويضعونها في اعتبارهم ويعنون بتطبيقها ، كما يعلمون في قرارة أنفسهم أن التقصير في هذا الجانب يوجب العقوبة ، وفي المقابل يحتم الإسلام عليهم الدعوة إلى نشر التراحم بين الناس والدعوة إلى تحرير الإنسان من العبودية لغير الله تعالى ، والتقاعس عن أداء هذه الرسالة الكبرى هو إخلال في تطبيق مبادىء الإسلام وتعاليمه .

وحينما نراجع النصوص الشرعية الداعية إلى التسامح نجدها تتحدث عن جانبين :

الأول : التسامح فيما بين المسلمين أنفسهم ، ومجاله كتب الآداب الاجتماعية، وقد برع العلماء المسلمون في تأصيل ذلك فيراجع في مظانه .

٧- الحجرات : ١٣.

٨- مسند الإمام أحمد بن حنبل ، ٥ / ٤١١ ، بهامشه منتخب كنزل العمال ، ، ط: دار الفكر ، بيروت ، لبنان.

ثانيا : تسامح المسلمين مع غيرهم ، وهو ما يعنينا في هذا المقام .

في هذا الجانب ، نجده يتفرع إلى قسمين : التسامح مع المشركين ، والتسامح مع أهل الكتاب، وهو ما نحن بصدد البحث فيه الآن.

ثالثا ـ منهج الإسلام في التسامح الحضاري مع أهل الكتاب :

ففي جانب أهل الكتاب يحسن التنبيه على أن المقصود بالتسامح هو التسامح الإيجابي المرتكز على الاحترام وصيانة الكرامة دون التفريط في الحق أو المساس بالأخلاق ، بما يضمن كرامة المسلمين مع غيرهم واحترام العهود والمواثيق .

إن هذه المسلمات تضعنا أمام حتمية لا مناص من الاعتراف بها ، وهي التأكيد على الجدية في التعاطي مع المبادىء ، وعدم اعتبارها شعارات براقة لا مضمون لها ، أو دعايات خيالية لا واقع لها ، بل هي قناعات راسخة في نفوس المؤمنين من أبناء هذه الأمة و يُعَدُّ التاريخ أكبر شاهد عليها ، لأنها تحققت على أرض الواقع من خلال ممارساتهم عبر القرون الخوالي مع غيرهم ، وهي بالتالي قابلة للتحقيق في الحاضر والمستقبل ، كلما أتيحت لهم الفرصة لإبرازها ، وتحقيقها .

وفي هذا العصر أقام المجتمع الدولي ، وخاصة الغربي منه ، حصارا حول الإسلام ، وأهله ، وأطلق ضده دعايات مغرضة ، هدفها النيل من قيمه ، وتعاليمه، وكان غاية في الحقد حينما ساوى بين الإسلام والإرهاب . وفي المقابل بات كثير من المسلمين أسرى هذه الأضاليل المجحفة ، وغدوا لقمة سائغة في أفواه الموتورين والحاقدين ، من كل حدب وصوب .

إن هذا الموقف المعادي للإسلام يُعَدُّ التحدي الكبير أمام هذه الأمة ، وهي إشكالية فريدة في تاريخ المسلمين ؛ لذا كان حريا بأصحاب الفكر والرأي وصنع القرار العمل على إخراج الأمة من هذا المأزق ، وإيجاد السبل الكفيلة بتصحيح

رؤية العالم نحو هذا الدين، وإبراز محاسنه .

وما دام البحث يتناول التسامح الديني مع أهل الكتاب يحسن تحديد المقصود بأهل الكتاب ومن ثم اتخاذ المواقف المناسبة نحوهم ، لأنهم ليسوا سواء.

فهناك المعاهدون و المستأمنون ، وأهل الهدنة ،وهناك المحاربون ، فليسوا حالة واحدة يتحقق فيها التعامل معهم وبدرجة واحدة .و قد تكفلت كتب الفقه الإسلامي بإبراز هذه الفروق .ومن هنا يلتبس على خصوم الإسلام موقفه من هاتين الحالتين ؛ ولإجلاء هذه الحقيقة ينبغي بيان الآتي:

درج الإسلام في تعاليمه على تعليم المسلمين كيفية التعامل المبني على التسامح مع أهل الكتاب لأن المجتمع الحضاري هو الذي يعتبر بالآخرين ويشعرهم بهذا الكيان الموجود، وذلك عبر الأمور التالية :

١- اعترف الإسلام بالرسالات السابقة ، وذكر بعثة إبراهيم عليه السلام، وتحدث عن بني إسرائيل والأنبياء الذين أرسلهم الله تعالى إليهم ابتداء من يعقوب إلى رسالة موسى عليه السلام ،وصولا إلى رسالة سيدنا عيسى ابن مريم عليه السلام ، ومدحهم وأثنى على دعوتهم ، ودعا المسلمين إلى احترامهم وإنزالهم المنزلة اللائقة بهم وعدم الغلو فيهم .

٢ - دعوة أهل الكتاب وحوارهم من أجل الوصول إلى قواسم مشتركة في قضايا العقيدة منعا لأي نزاع كما في قوله تعالى :﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ آل عمران : ٦٤

٣ - دعوة أهل الكتاب إلى عدم الغلو في الدين ، والرجوع إلى الحق ، كما

في قوله تعالى :﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ المائدة : ٧٧

٤ - دعوتهم إلى الاعتراف بالرسالة المحمدية كرسالة خاتمة والتدبر في شأنها كما في قوله تعالى :﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾العنكبوت:٤٧ وقوله تعالى :﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ المائدة : ١٩ .

٥ -الترفق في دعوتهم ، وحسن معاملتهم ، وإقامة العدل والإحسان إليهم كما في قوله تعالى : ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ الممتحنة :٨.

هذه بعض الآيات الكريمة وغيرها تدعوا أهل الكتاب إلى النظر والتدبر في الجانب الحضاري للإسلام في الحوار أولا وفي التسامح ثانيا.

الفصل الأول : الإسلام دين الحضارة والتسامح

المبحث الأول : خصائص الإسلام الحضارية

ليس من الغلو إذا قلنا إن الإسلام هو دين الحضارة الحقة ، وليس من التعصب القول إن الإسلام هو الحضارة بعينها ، وقد مر معنا في الصفحات الماضية تعريفات العلماء للحضارة والمفاهيم التي تدور حولها وقد خلصنا إلى أن مفهوم الإسلام للحضارة هو المفهوم اللائق بهذا التعريف الجامع المانع ، والموقف يقتضي إيضاح الأخطاء التي يرتكبها بعض العلماء في اقتصارهم على تحديد مفهوم الحضارة على الجانب المادي فقط ، دون الجانب الديني والخلقي لها ، ذلك لأن هذه القيم الروحية هي التي تضمن استمرار الحضارة وبقاءها، وإلا فإن بذور انهيارها وانحطاطها كامن في اعتماد أهلها على الماديات دون النظر إلى القيم الأخلاقية والدينية . و غياب الأمة الإسلامية عن المسرح الحضاري المعاصر أدى إلى الخلل في الحضارة الغربية ، وهذا ما أشار إليه الشيخ الندوي ـ رحمه الله تعالى ـ في كتابه الماتع : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين .

إن هذا الغياب القسري الذي بلي به العالم الإسلامي كانت له أسبابه و دوافعه التي لا مجال الآن لذكرها ، بل لا بد من إلقاء الضوء على خصائص هذا الدين الحضاري بشكل عام ، ومن ثم الوصول إلى جانب فضيلة التسامح التي هي جزء لا يتجزأ من هذا الدين ، بله التسامح مع أهل الكتاب بصورة خاصة .

إن المفهوم الحضاري للإسلام يتسم بالشمول في جوانب الحياة المدنية والفكرية والدينية ، لاعتماده على ربانية التعاليم انطلاقا من قوله تعالى : ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ﴾ الشورى : ١٣ .

كما أن الثبات على القيم والمباديء التي لا تتغير ولا تتبدل بتغير الأحوال والأزمان ، من خصائص هذا الدين لأنها تتعلق بالعقيدة ، أما المتغيرات فتأخذ طريقها في جانب الفروع المعتمدة على اجتهاد الفقهاء والعلماء بما لا يتعارض مع الشرع ، وذلك حينما لا يوجد نص شرعي يبين الحكم فيها.

كما أن الوسطية في الجانب العقدي والشرعي هي سمة من سمات هذا الدين، فلا مجال للاقتراب من الإلحاد ، وذلك بفضل نقاوة الإيمان بالله تعالى الحافظة لسلامة العقل واتزانه في مواجهة عاديات أهل الأهواء ، ولا مجال للإشراك به لنقاوة عقيدة التوحيد القائمة على الدليل القاطع والبرهان الساطع ، في مواجهة أصحاب الملل والنحل الداعية إلى اتخاذ الأرباب مع الله تعالى .

كما أن واقعية هذا الدين ووضوح تعاليمه ، تبعد الإنسان عن جموح الكهان، والمتلاعبين بعقول البسطاء من البشر .

إن هذه القيم الرفيعة تضاف إلى القيم الأخلاقية التي أرسى دعائمها القرآن الكريم في مثل قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ القلم : ٤ . كما تجلى ذلك من خلال رعايته ﷺ لأصحابه ، ودعوته للتمسك بالأخلاق في مثل قوله: «أقربكم مني مجلسا يو م القيامة أحاسنكم أخلاقا » وقوله : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»، ومن هذا الخلق العظيم انبثقت مفاهيم التسامح .

كل ذلك كان كفيلا ببناء مجتمع متماسك قائم على العدل والحق والخير ، مما مكن هذه الأمة التي تمسكت بأهداب الدين من تسلم مكانة الريادة في مضمار الحضارة الإنسانية ، و قد انعكس ذلك كله على جوانب الحياة الاقتصادية ، والاجتماعية والثقافية والسياسية والمادية بشكل عام ؛ فتجلى العمران في الديار الإسلامية ، ونقل المسلمون حضارتهم الزاهرة إلى البلدان المفتتحة ، التي أضحت فيما بعد منارة للعلم والمعرفة ، وقبلة العلماء وطلبة العلم ، وحضارة المسلمين في الأندلس هي خير شاهد على هذه الحقيقة .

المبحث الثاني : فضيلة التسامح الإسلامي عامة ، ومع أهل الكتاب خاصة

سبقت الإشارة إلى تعريف التسامح في الصفحات الماضية ، كما رأينا أن التعاليم الإسلامية ما هي إلا نتاج دعوة القرآن الكريم لبني البشر إلى التماس الطريق القويم ، والصراط المستقيم ، قال تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ الأنعام : ١٥٣

كانت هذه الدعوة حافزا للمسلمين على عدم التفرقة، والالتفاف حول بعضهم ونشر الأمن والسلام في ربوعهم ، ولن يكون هذا الأمر ميسرا لو لم تكن روح المحبة والوئام تملأ مجتمعاتهم التي ضمت في حناياها شعوب البلدان المفتتحة ، والتي كانت تضم أمما تنتسب إلى المجوس ، والهندوس ، والبوذيين ، فضلا عن شعوب أهل الكتاب من اليهود والنصارى .

لقد كان التسامح الإسلامي مع الملل والنحل الأخرى هو السمة البارزة في تعامل المسلمين مع غيرهم ،ولننظر إلى قوله ﷺ لكفار قريش عند فتح مكة : ما تظنون أني فاعل بكم؟ ، قالوا: أخ كريم وابن أخ كريم ، قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء، كما تكون المجتمع الإسلامي في المدينة ـ فيما بعد ـ من هذا النسيج الاجتماعي، كما فعل النبي ﷺ مع يهود المدينة من إقامة المعاهدات والمواثيق معهم، وإرساء قواعد التعاون ، و احترام العيش المشترك القائم على السلم الأهلي .

وحتى لا يكون الموضوع معتمدا على الكلام الإنشائي ، كان لا بد من الاستشهاد بالنصوص الشرعية الدالة على هذه الحقيقة ، وذلك من خلال الآتي:

المبحث الثالث : النصوص الشرعية الدالة على التسامح

أولا: في القرآن الكريم : قال الله تعالى في محكم التنزيل : ﴿ ۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾[٩].

قال ابن عطية : « لما نصت الضمائر في الكفر والقتل والعصيان والاعتداء عامة في جميع أهل الكتاب عقب تعالى ذلك بتخصيص الذين هم على خير وإيمان وذلك أن أهل الكتاب لم يزل فيهم من هو على استقامة ، فمنهم من مات قبل أن يدرك الشرائع فذلك من الصالحين ، ومنهم من أدرك الإسلام فدخل فيه ..أو يكون اليهود في معنى الأمة القائمة إلى وقت عيسى عليه السلام ثم ينتقل الحكم في النصارى» [١٠].

فالتفرقة بين صنفين من أهل الكتاب أمر قائم في حساب تعامل المسلمين مع غيرهم وهذا ما يدعو إليه القرآن الكريم في قوله تعالى :﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾[١١].

قال ابن كثير رحمه الله تعالى :«أي لا ينهاكم عن الإحسان إلى الكفرة الذين لا يقاتلونكم في الدين كالنساء والضعفة منهم أن تبروهم أي تحسنوا إليهم وتعدلوا»[١٢]. ويدخل في هذا كل من عاهد المسلمين والتزم بالمواثيق المبرمة معهم كان حقا عليهم أن يعاملوه معاملة حسنة وفق شرع الله تعالى».

٩- آل عمران : ١١٣ .

١٠- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي ، ص ٣٤٤ ، دار ابن حزم، ط١، ١٤٢٣هـ ، ٢٠٠٢م، بيروت ، لبنان .

١١- الممتحنة : ٨ .

١٢- تفسير القرآن العظيم ، أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي ، ٤ / ٣٤٨-٣٤٩، المكتبة الشعبية .

وفي المقابل هناك من يضمر للمسلمين السوء والعدوان ، وعليه فإن حسابهم يختلف عن الفئة الأولى ، قال الله تعالى :

﴿ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (١٣).

هذه الفئة المذكورة لا يجب توليتهم لأن من تولاهم هم الكاملون في الظلم لأنهم تولوا من يستحق العداوة لكونه عدوا لله ولرسوله ولكتابه وجعلوهم أولياء لهم » (١٤).

ومن هنا يتضح الفرق في التعامل بين المعاهدين والمستأمنين ، وبين المحاربين من أهل الكتاب ، فمن يعش بين ظهراني المسلمين منهم مسالما يمد لهم يد التعاون، كان حقا على المسلمين أن يبروه ويقسطوا إليه ، أما الذين اتخذوا العداوة والبغضاء منهجا في تعاملهم مع المسلمين ، فهم يستحقون ما نزل في شأنهم من آيات القتال، وحتى في أحوال القتال هناك قواعد تحكم تعامل المسلمين مع غيرهم .

إن هذه التوجهات السنية لم تكن الوحيدة في هذا الشأن ، فهناك الكثير من الآيات الكريمة التي تشير إلى الرحمة التي يتصف بها المصطفى ﷺ ، من مثل قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ (١٥)

ثانيا : في السنة النبوية الشريفة

وكونه ﷺ رحمة للعالمين يدخل فيها الكفار ، وغيرهم كأهل الكتاب ، وتتجلى

١٣- الممتحنة : ٨ .

١٤- فتح القدير ، الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، ٥ / ٢١٢-٢١٣، ط٢، ١٣٨٣هـ - ١٩٦٤م ، مصطفى البابي الحلبي ، مصر .

١٥- الأنبياء : ١٠٧.

هذه الرحمة بتأخير العذاب عنهم دون تعجيل العقوبة ، إفساحا للمجال أمامهم للتوبة والإيمان بالله تعالى .

وعن أبي هريرة ﷺ قال : قيل يارسول الله :ادع الله على المشركين ، قال : «إني لم أبعث لعانا وإنما بعثت رحمة » [١٦].

وعنه قال ﷺ : قال رسول الله ﷺ : « إنما أنا رحمة مهداة» [١٧].

من خلال النصوص الشرعية آنفة الذكر يتسنى لنا الوقوف على المنهج الحضاري للنبي ﷺ في التعامل مع أهل الكتاب ، فحينما يأمر الإسلام أتباعه بترسيخ هذه القواعد المثلى في السلوك ، ويتجلى ذلك في استشعار المسلمين ضرورة النزول عند هذه الأوامر عن قناعة ورضا ، إن هذه الشروط المفروضة على المسلمين من قبل الشرع الحنيف لا بد أن تتجلى نتائجها على المجتمع أمنا وسلاما وذلك عن طريق تبادل المنافع بين الطرفين ، مما يتيح لأفراد المجتمع التعامل المثمر ، وصولا إلى الانصهار في بوتقة واحدة ألا وهي المجتمع الإنساني الحضاري القائم على الاحترام المتبادل .

المبحث الرابع: ضمان الإسلام للحريات

إن هذه المشاركة القائمة على التسامح كفيلة بإذابة الأحقاد بين الأطياف المختلفة من البشر ، في المجتمع القائم على نبذ الضغائن ، و قد وفره الإسلام في أرقى تعاليمه وذلك من خلال الحرية التي يمنحها لأفراده وعلى وجه الخصوص تلك الحريات التي ضمنها الإسلام لأهل الكتاب ومنها :

١٦- صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب البر والصلة والآداب ، رقم ٨٧ـ (٢٥٩٩) ٨/ ٣٩٤ . ت : عصام الصبابطي وآخرون ، ط ١، ١٤١٥ هـ ، ١٩٩٥م، دار أبي حيان،مصر .

١٧- رواه الحاكم ، ١/ ٣٥ ، وصححه على شرطهما ، ووافقه الذهبي ، انظر : تهذيب الخصائص النبوية الكبرى ، جلال الدين عبد الرحمن أبو بكر السيوطي، ت : عبد الله التليدي ، ص٣٥٦، ط:٢، دار البشائر الإسلامية ،بيروت، لبنان .

١ ـ حريتهم الشخصية ٢ ـ حريتهم في إقامة شعائرهم التعبدية ،وحريتهم في الدعوة إلى دينهم فيما بينهم .

وقبل الشروع في بيان مضمون هذه الحريات الممنوحة لأهل الكتاب في ظل الحكم الإسلامي ينبغي توضيح معنى الحرية التي ينشدها الإسلام لبنيه ولغيرهم.

من خلال التجارب الإنسانية عبر التاريخ الطويل ، ومن خلال استقراء أحوال الأمم والشعوب في مضمار التقدم والرقي الحضاري ، فإن شعوب الأرض نادت بضرورة الحرية لأبناء الجنس البشري ، لكن مفاهيم الناس حول الحرية تختلف من أمة إلى أخرى ، ومن شعب إلى آخر ، فهناك الحرية من الاستعباد ، والحرية الدينية، والحرية الفكرية ، و الحرية الشخصية، والاقتصادية ، إلى غيرها .

لكن معنى الحرية التي نادى بها الإسلام وعمل النبي ﷺ على تطبيقها تتلخص في مجامع الخير للناس ، وإذابة الفوارق بينهم ، مع الحرص الشديد على أن لا تخرج هذه الحرية عن عقالها ، بل يجب أن تقف عند حدود حقوق الآخرين .

فلا يقيد الإسلام الإنسان إلا لمصلحة أفضل ، فإذا تعارضت حرية الإنسان مع عبوديته لله تعالى ، أو مع حرية الآخرين ، أو إذا أضرت به شخصيا ، فعند ذلك يتدخل الإسلام لمنع هذه الحرية حفاظا على المصلحة العامة ، فلا يجعل أي قيد على الحرية إلا لأمر قد تبين ضرره [١٨].

من هنا يتبين لنا أن الحرية في الإسلام تجمع بين خصال الخير والرشاد لما فيه مصلحة البلاد والعباد ، وهي اللبنة الأولى في صرح النظام الحضاري الذي أرسى دعائمه المصطفى ﷺ .

١٨- انظر: الحوار مع أهل الكتاب ، خالد عبد الله القاسم ، ص ٦٣ ، ط :١ ، ١٤١٤هـ ، دار المسلم ، الرياض.

وبنظرة شاملة إلى هذا المفهوم ومقارنته بالشعارات التي ترفعها الشعوب غير المسلمة نجد أن البشرية في كفاحها الطويل والمرير من أجل الوصول إلى الحرية قد مرت بقرون متطاولة وعذابات أليمة دفعت خلالها الغالي والنفيس من الدماء والأرواح حتى وصلت إلى ما وصلت إليه في هذا العصر ، وإلى الآن لا زالت البشرية تدفع هذه الضريبة الغالية من أجل الحصول على حريتها الضائعة في لهوات الدول الكبرى المسيطرة على مقدراتها وثرواتها .

في حين أن الإسلام قد أراح البشرية من وعثاء هذا الطريق الوعر ، وذلك بإفصاحه منذ تباشير تعاليمه الأولى وإلى الآن ،وهو ينادي : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟، ويدعو بأعلى الأصوات كما قال «ربعي بن عامر» «لرستم» زعيم الفرس : « الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام» [19] .

إن الحرية التي طبقها المصطفى ﷺ ، تعتمد على الوحي الإلهي المنزل من لدن حكيم عليم ، لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى .

وبالرجوع إلى تعاليمه ﷺ في مضمار معاملة أهل الكتاب وإعطائهم الحرية ، نجد الأحاديث الشريفة تنضح بهذه الحقيقة الناصعة ، خاصة في المجالات الآتية :

أولا : الحرية الشخصية

ومن ذلك ما جاء في قوله عليه الصلاة والسلام « من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة ، وإن ريحها يوجد من مسيرة أربعين عاما » [20].

١٩- ١٩. البداية والنهاية ، أبو الفداء ، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي ، ٧ / ٤٩ ، ط : ١ ، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م، دار أبي حيان ، القاهرة .

٢٠- رواه البخاري، باب أثم من قتل معاهدا من جرم ٤: ٦٥ .ط : المكتب الإسلامي ،١٩٧٩م ،استانبول تركيا .

كما جاء ذلك أيضا في قوله ﷺ : « وإذا ملكتم القبط فأحسوا إليهم فإن لهم ذمة ، وإن لهم رحما »[٢١].

فأهل الكتاب هنا هم أهل الذمة الذين تكفل المسلمون برعايتهم وحمايتهم حماية تامة في المجتمع الإسلامي، وعاملوهم معاملة حسنة ، بحسب ما أمروا به.

وهذه الحرية تتضمن حرية الشخص في الرواح والمجيء ، وحماية شخصه من أي اعتداء ، كما تتضمن عدم جواز القبض عليه ، أو حبسه أو معاقبته ، إلا إذا أقدم على ما ينقض العهد .

فللذمي أن يذهب إلى المكان الذي يريده مطمئنا على سلامته وحمايته من أي اعتداء ، فالنصوص العامة تحرم العدوان على الآخرين ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾[٢٢]. وقال عز من قائل :﴿ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[٢٣].

فالظلم محرم في كل شريعة أنزلها الله تعالى ، والله تعالى لا يرضى بظلم غير المسلم .[٢٤].

وقد أخبر الحق تبارك وتعالى أنه لا يظلم الناس شيئا ، فدخل في عموم هذا اللفظ جميع الناس من مسلم و غير مسلم [٢٥].

٢١- رواه الصنعاني في المصنف ، ت : حبيب الرحمن الأعظمي ، ٦: ٥٨ ، ط :٢، ١٤٠٣ هـ-١٩٨٣م ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، لبنان .

٢٢- البقرة : ١٩٠.

٢٣- البقرة : ١٩٣.

٢٤- انظر بتوسع : أحكام الذميين و المستأمنين في دار الإسلام ،د. عبد الكريم زيدان ، ص٨٨ ، ط : ١٤٠٢هـ -١٩٨٢م ، مكتبة القدس ، ومؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان .

٢٥- انظر : عمدة القاري شرح صحيح البخاري ، بدر الدين العيني ، المجلد الخامس ، ٩ / ٩٤ ،ط: دار الفكر.

ويتضح هذا المعنى السامي في قول المصطفى ﷺ الحريص على العناية بالمعاهدين من أهل الكتاب عند قوله : «من قتل معاهدا في غير كنهه حرم الله عليه الجنة» [٢٦]. وفي رواية أخرى :ألا من ظلم معاهدا أو انتقصه ، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة»[٢٧].

ليست هناك عبارة أدق من كلام النبي ﷺ في التعبير عن مدى سخطه ممن يتعدى الحدود الشرعية مع المعاهدين والمستأمنين من أهل الكتاب، وهذه ميزة طالما تمتع بها هؤلاء في ظل الحكم الإسلامي .ومنه أيضا قوله ﷺ : « من آذى ذميا فأنا خصمه ، ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة » .[٢٨] وفي حديث آخر « من أمن رجلا على دمه فقتله فأنا بريء من القاتل، وإن كان المقتول كافرا» [٢٩]

وكان في حياته ﷺ يعقد العهود والمواثيق مع اليهود والنصارى ، فقد عاهد أهل نجران النصارى ، ومما جاء في هذا العهد قوله: «ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله على أموالهم وأنفسهم وأرضهم وملتهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم ، وبيعهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير ، لا يغير أسقف من أسقفيته ولا راهب من رهبانيته ولا كاهن من كهانته وليس عليه دنية . . ولا يؤخذ منهم رجل بظلم آخر» .[٣٠].

٢٦- مختصر سنن أبي داود ، للحافظ المنذري ، ت: محمد حامد الفقي ،٤ / ٦٤، مكتبة السنة المحمدية ، مصر .

٢٧- صحيح سنن أبي داود، الحافظ سليمان بن الأشعث السجستاني، ت: محمد ناصر الدين الألباني ، ٢ / ٢٦١ ، ط: ٢ ، ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م ، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع ، الرياض .

٢٨- الجامع الصغير من حديث البشير النذير ، عبد الرحمن السيوطي ،و رواه للطبراني في الأوسط عن أنس بسند حسن ، انظر الجامع الصغير ٢ / ٥٤٧. ط : الأولى ، ١٤٠١هـ- ١٩٨١م دار الفكر ، بيروت ، لبنان .

٢٩- الجامع الصغير من حديث البشير النذير ، عبد الرحمن السيوطي ،و رواه الخطيب البغدادي في التاريخ عن ابن مسعود بسند حسن ، انظر: الجامع الصغير ، السيوطي ، ٢ / ٥٤٧ .

٣٠- الخراج ، أبو يوسف، القاضي يعقوب بن إبراهيم ،،ص ٧٨ ، مطبعة بولاق ، القاهرة.

كما أنه كان يوصى أصحابه حين الغزو بضرورة الحفاظ على أرواح الناس، وذلك فيما أخرج مسلم في صحيحه عن بريدة قال: كان رسول الله ﷺ إذا أمّر أميرا على جيش، أو سريّة، أوصاه في خاصّته بتقوى الله، و بمن معه من المسلمين خيرا، ثم قال:

«اغزوا، على اسم الله، في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا و لا تغُلّوا، و لا تغدروا، و لا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدا، وإذا لقيت عدوّك من المشركين، فادعهم إلى ثلاث خصال، فأيتهن أجابوك إليها، فاقبل منهم، وكفّ عنهم: ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم، ثم ادعهم إلى التحوّل من دارهم إلى دار المهاجرين،و أخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين فإن أبوا أن يتحولوا منها ، فأخبرهم بأنهم يكونون كأعراب المسلمين،يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين و لا يكون لهم في الغنيمة و الفيء شيء، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا فاسألهم الجزية، فإن أجابوك فاقبل منهم، و كف عنهم فإن هم أبوا فاستعن عليهم بالله تعالى، وقاتلهم، وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله و ذمّة نبيّه، فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة نبيه، ولكن اجعل لهم ذمّتك؛ وذمة أصحابك ،فإنكم أن تخفروا ذمتكم أهون من أن تخفروا ذمّة الله،وذمة رسوله ، و إذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله ،ولكن أنزلهم على حكمك؛ فإنك لا تدري أتصيب فيهم حكم الله تعالى، أم لا؟» .[٣١]

ومن هذا الحديث نستنتج :

ـ تسامح المسلمين مع غيرهم في عدم الغدر ، وعدم المثلة بهم .

٣١- ٣١ـ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الجهاد والسير ، رقم الحديث ٢ ـ (١٧٣١).
٦ / ٢٧٩ـ ٢٨٠ ، ت : عصام الصبابطي ، وآخرون ، ط:١ ، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م ، دار أبي حيان ، القاهرة.

- النهي عن قتل الأولاد .

- دعوة الخصوم إلى الإسلام .

- التساوي في الحقوق بينهم وبين المسلمين .

ثانيا :الحرية الدينية

لم تكن وصايا النبي ﷺ نظرية ، أو خيالية في حساب المسلمين بعده بل نجد هذه التطبيقات العملية في الممارسات التي قام بها أصحابه وأتباعه ، ومن ذلك مثلا : وصية عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما طلب منه أصحابه وصيته ، قال لهم : «أوصيكم بذمة الله ، فإنه ذمة نبيكم ورزق عيالكم»[٣٢].

ومن ذلك أيضا حينما أوصى في أيام حياته بأهل الذمة قائلا لخليفته من بعده: « و أوصيه بذمة الله وذمة رسوله ﷺ أن يوفي لهم بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم ولا يكلفوا إلا طاقتهم » [٣٣].

كما كان في أيام خلافته يوصي عماله بأهل الذمة ويسأل الوفود عنهم ليتأكد من حسن معاملتهم ، ومن ذلك ما رواه الطبري في تاريخه : أن عمر بن الخطاب قال لوفد البصرة : « لعل المسلمين يفضون إلى أهل الذمة بأذى ؟ فقالوا : ما نعلم إلا وفاء... » [٣٤].

وعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه يعلن مساواة الذميين بالمسلمين في حرمة المال والدم ، فيقول :» إنما بذلوا الجزية لتكون أموالهم كأموالنا ودماؤهم

٣٢- رواه البخاري : ٤ / ٦٤

٣٣- رواه البخاري ، باب ٨ ، قصة البيعة ، ٤ / ٢٠٦ ، وانظر:الخراج : أبو يوسف ، ص١٣٦ ، وكذا :عمدة القاري شرح صحيح البخاري ، بدر الدين العيني ، ٩ / ٩٤.

٣٤- تاريخ الطبري ، المجلد الثاني، ٤ / ٢١٨ ، ط : ١٣٩٩هـ ، ١٩٧٩م، دار الفكر ، بيروت، لبنان

كدمائنا»[٣٥].

وفي هذا الجانب نجد العلماء والفقهاء قد أسهبوا في الحديث عن حقوق أهل الذمة الدينية وغيرها ، وتجلى ذلك في مؤلفاتهم وكتبهم ، كما نجدهم يخاطبون حكام المسلمين بشأنهم ، ويوصونهم بهم خيرا ومن ذلك ما كتبه الإمام أبو يوسف إلى هارون الرشيد يوصيه برعايتهم وتفقد أحوالهم وإشاعة العدل بينهم وإنصاف المظلوم حتى « لا يظلمون ولا يؤذون ولا يكلفون فوق طاقتهم »[٣٦] ..

وحتى نكون موضوعيين في البحث ، فإن الأخطاء التي كانت تقع من بعض المسلمين في حق أهل الكتاب ،نادرة جدا ، و حينما تحصل فإن العلماء لم يكونوا يسكتون عن هذا الضيم .

بل إن هذا التسامح جعل علماء أهل الكتاب يتأثرون بالعقيدة الإسلامية ، كعلامة اليهود في عصر الدولة الأيوبية في مصر قد وصل بالعقائد اليهودية إلى المستوى الفكري الموازي لنتائج علم التوحيد وعلوم الكلام عند أئمة المسلمين ، كما فعل من قبله سلفه سعيد بن يوسف الفيومي[٣٧] .

فمن ذلك إنكار الإمام «الأوزاعي» على الوالي العباسي «صالح بن علي بن عبد الله بن عباس» حينما أجلى قوما من أهل الذمة من جبل لبنان ، فقد كتب إليه ينكر عليه فعله ، ويقول له في رسالته هـذه :» و قد كان من إجلاء أهل الذمة من جبل لبنان من لم يكن ممالئا لنا لمن خرج على خروجه ممن قتلت بعضهم ورددت باقيهم إلى قراهم ما قد علمت ، فكيف تؤخذ عامة بذنوب خاصة حتى يخرجوا

٣٥- المغني، عبد الله بن أحمد بن قدامة ، ٨/ ٤٤٥ ، مكتبة الرياض الحديثة ، الرياض .

٣٦- انظر: الخراج ، أبو يوسف ، ص١١ .

٣٧- انظر : الفكر الديني اليهودي ، د. حسن ظاظا ، ص ١٣٥ ـ ١٣٩، دار القلم ، ط ٢ ، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧ ، دمشق .

من ديارهم وأموالهم ، وحكم الله تعالى :﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [٣٨]. ثم يقول في رسالته « فإنهم ليسوا بعبيد فتكون من تحويلهم من بلد إلى بلد في سعة، ولكنهم أحرار أهل ذمة » [٣٩].

إن هذا الموقف المشرف للإمام الأوزاعي رحمه الله تعالى يؤكد حرص العلماء على تطبيق التعاليم والتوجيهات النبوية في معاملة أهل الكتاب ، وهو عين التسامح الذي نادى به المصطفى ﷺ ، الذي يرقى إلى الدرجة الحضارية العالية .

ولإن كانت تسمية أهل الكتاب بأهل الذمة قد تلقى أصداء سلبية في مفهوم بعضهم ، فإن سوء فهمها يجعلهم يتحرجون ويأنفون من سماعها ، في حين أن معناها الدقيق لا يخرج عن الواقع الذي يعيشونه كأناس لهم في عنق المسلمين عهد وميثاق عليهم أن يسعوا لتحقيقه دائما ، فلا يجوز تفسيرها بغير ذلك .

كما قد يتحرج بعضهم من مسألة الجزية ، على اعتبار أن فيها من الإهانة ما فيها ، وهذا أيضا فهم مغلوط يجب الترفع عنه ، إذ إنَّ الجزية هذه أموال لا يدفعها إلا من قدر منهم عليها ، وقد أعفي منها فئات كثيرة من أهل الكتاب وسجل المسلمين حافل في هذا الصدد[٤٠]، ذلك لأن دفع الجزية هو في مقابل تأمين المسلمين الحماية لهم من عدو غاشم ، أو دفع ظلم يقع عليهم ، والدارس لنظام الحكم في الإسلام يعلم أن ما يدفعه الفرد المسلم من زكاة وصدقات لبيت مال المسلمين هو أكثر مما يدفعه الفرد القادر من أهل الكتاب جزية ، فلا يلتفت إلى

٣٨- النجم : ٣٨ .

٣٩- فتوح البلدان ، أبو الحسن البلاذري، ١٦٦- ١٦٧، ط : ١٤٠٣- ١٩٨٣م، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان، والأموال لأبي عبيد، القاسم بن سلام ، ت: د. محمد عمارة ، ص ٢٦٣- ٢٦٤، ط:١، ١٤٠٩، =١٩٨٩م، دار الشروق ، بيروت ، لبنان.

٤٠- انظر مثلا : فتوح البلدان ، البلاذري ، ص١٦٤- ١٦٥ .وكذا الخراج ، أبو يوسف ، ص١٣٦.

هذا الاعتراض .بل إن عمر بن الخطاب ﷺ مر بشيخ مسن من أهل الكتاب يسأل على أبواب الناس ، فقال : ما أنصفناك ، أن كنا أخذنا منك الجزية في شبيبتك ثم ضيعناك في كبرك ، قال : ثم أجرى عليه من بيت المال ما يصلحه«[٤١].

فالذمة هي ذمة الله ورسوله، وليست ذمة أحد من الناس. بقاؤها لضمان الحقوق لا إهدارها، ولاحترام الدين المخالف للإسلام لا لإهانته، ولإقرار أهل الأديان على أديانهم ونظمها لا لحملهم على الزهد فيها أو الرجوع عنها، ومع ذلك فهي عقد لا وضع .

فالذمة في اللغة هي العهد والأمان والضمان. قال أبو البقاء الكفوي في كلياته:(وسمي العقد مع غير المسلمين بها لأن نقضه يجلب المذمة)!. وهي في مصطلح الفقهاء عقد مؤبد يتضمن إقرار غير المسلمين على دينهم، وتمتعهم بأمان الجماعة الوطنية الإسلامية وضمانها، بشرط بذلهم الجزية، وقبولهم أحكام دار الإسلام في غير شئونهم الدينية (وعقد الذمة ليس اختراعا إسلاميا، وإنما هو عقد وجده الإسلام شائعا بين الناس، فأكسبه مشروعية بإقراره إياه، وأضاف إليه تحصينا جديدا بأن حوَّل الذمة من ذمة العاقد أو المجير إلى ذمة الله ورسوله والمؤمنين، أي ذمة الدولة الإسلامية نفسها، وبأن جعل العقد مؤبدا لا يقبل الفسخ حماية لأهل غير الإسلام من الأديان، من ظلم ظالم أو جور جائر من حكام المسلمين[٤٢]. والجزية لم تكن ملازمة لهذا العقد في كل حال - كما يصرح بذلك تعريفه - بل لقد أسقطها الصحابة والتابعون عمن قبل من غير أهل الإسلام مشاركة المسلمين في الدفاع عن الوطن، لأنها بدل عن الجهاد (كما يقرر الإمام

٤١- أحكام أهل الذمة ، محمد بن أبي بكر، ابن قيم الجوزية ، ، ت: د. صبحي الصالح ، ١ / ٣٨ . دار العلم للملايين ، ط : ٣ ، ١٩٨٣م ، بيروت ، لبنان .

٤٢- أحكام الذميين والمستأمنين، عبد الكريم زيدان: ص ٢٢ ، ١٩٦٧م ،بيروت ، لبنان، وانظركتاب : غير المسلمين في المجتمع الإسلامي،د. القرضاوي: ص ٦. القاهرة ١٩٧٧ .

ابن حجر في شرحه للبخاري ...وينسب ذلك - وهو صحيح صائب - إلى جمهور الفقهاء). ولذلك أسقطها سراقة بن عمرو عن أهل أرمينية سنة ٢٢ هجرية، وأسقطها حبيب بن مسلمة الفهري عن أهل أنطاكية، وأسقطها أصحاب أبي عبيدة بن الجراح - بإقراره ومن معه من الصحابة - عن أهل مدينة على الحدود التركية السورية اليوم عرفوا باسم - الجراجمة - وصالح المسلمون أهل النوبة، على عهد عبد الله بن أبي سرح، على هدايا يتبادلها الفريقان في كل عام، وصالحوا أهل قبرص في عهد معاوية على خراج وحياد بين المسلمين والروم (والخراج هنا ضرائب تفرض على من يجوز من الفريقين ديار الآخر.....).

وغير المسلمين من المواطنين - اليوم ومنذ أكثر من قرن - في الدول الإسلامية يؤدون واجب الجندية، ويسهمون بدمائهم في حماية الأوطان، فهم لا تجب عليهم جزية أصلا في النظر الفقهي الصحيح. [٤٣]

بل إن المسلمين حينما كانوا يطبقون نظام الجزية كانوا حريصين كل الحرص على عدم التفريط في حماية أهل الكتاب من ذلك ما قام به أبو عبيدة بن الجراح ﷺ حينما رد ما أخذه من جزية من أهل بعض مناطق الشام لما سمع بتجمع الروم ورأى عدم قدرته على الدفاع عنهم. [٤٤]

ويقرر علماء الأمة وفقهاؤها أنه إذا وقع الذميون أسرى في يد العدو فعلى الدولة الإسلامية أن تستنقذهم من أيديهم ولو بدفع الفداء عنهم .قال الإمام الليث بن سعد :» أرى أن يفدوهم من بيت المال ، ويقرون على ذمتهم [٤٥]. ويترتب على ذلك :

٤٣- ٤٢ـ انظر : نظام أهل الذمة ...رؤية إسلامية معاصرة ، د. محمد سليم العوا ، ١٣ /٧/ ٢٠٠٥م http: / /www.islamonline.net

٤٤- انظر: الخراج ، أبو يوسف ، ص ١٥٠ ـ ١٥١. ومغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج ، الخطيب الشربيني ، ٤ / ٢٥٣، ط: دار الفكر ، بيروت ، لبنان .

٤٥- الأموال ، لأبي عبيد ، ص ٢١٣ .

أ ـ حريتهم في إقامة الشعائر ، والدعوة إلى دينهم فيما بينهم :

يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ﴾[٤٦].

وعليه فالإسلام لا يكره أحدا على الدخول في الدين ، بل أعطى الحرية الدينية لأهل الكتاب ، ويوضح ابن عباس ﷺ ـ سبب نزول الآية الكريمة فيقول: « نزلت هذه الآية في الأنصار كانت تكون المرأة مقلاة ـ أي لا يعيش لها ولد ـ فتجعل على نفسها أي تنذر إن عاش ولد أن تهوده ، فلما أجلت بنو النضير ، وهم جماعة اليهود الذين كانوا يعيشون بالقرب من المدينة ، كان بينهم كثير من أبناء الأنصار فقالوا : إنما فعلنا ونحن نرى أن دينهم أفضل مما نحن عليه ، أي أفضل من عبادة الأوثان ، وأما إذْ جاء الله بالإسلام فنكرههم عليه ، فنزلت الآية : ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ فمن شاء التحق بهم أي اليهود ومن شاء دخل الإسلام »[٤٧].

إن هذه الآية فيها نص صريح عام ، فلا يجوز إكراه أحد على الدخول في الإسلام ، أما القتال فهو لمن حارب المسلمين ، فإن أسلم المحارب عصم ماله ودمه، وإذا لم يكن من أهل القتال فلا يقتل ، ولا يستطيع أحد قط أن ينقل عن الرسول ﷺ أنه أكره أحدا على الإسلام ، لا ممتنعا ولا مقهورا، ولا فائدة في إسلام مثل هذا ، لكن من أسلم قبل منه ظاهر إسلامه [٤٨].

كما يتجلى الموقف الحضاري للنبي ﷺ في التسامح مع أهل الكتاب وذلك من خلال تطبيق هذا الخلق السامي ، وذلك عندما قدم وفد نجران (وهم نصارى) على رسول الله ﷺ ودخلوا مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام ، وحانت

٤٦- البقرة : ٢٥٦.

٤٧- انظر : الجامع لأحكام القرآن ، محمد بن أحمد القرطبي ، ٣/ ٢٨٠، ط: ٣ ، ١٣٨٧هـ ١٩٦٧م، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، مصر .

٤٨- انظر بتوسع : الإسلام والعلاقات الدولية ، د. محمد الصادق عفيفي، ص ١٩١، سلسلة كتب دعوة الحق ، العدد ٣٦، السنة الرابعة ، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٤م ، رابطة العالم الإسلامي ، مكة المكرمة .

صلاتهم، فقاموا يصلون في المسجد ، فأراد المسلمون منعهم ، فقال ﷺ: « دعوهم، فاستقبلوا المشرق فصلوا صلاتهم ، ثم عقدوا مع الرسول عهدا يدفعون بموجبه الجزية ، وقد جاء فيه :» لا يغير أسقف عن أسقفيته ، ولا راهب عن رهبانيته ، ولا كاهن عن كهانته، وليس عليهم رهق ولا دم جاهلية ، ولا يحشرون ولا يعشرون ـ أي لا يندبون إلى المغازي ولا يعشرون أي لا يؤخذ عشر أموالهم ـ ولا يطأ أرضهم جيش ، ومن سأل منهم حقا فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين ، ومن أكل منهم ربا من ذي قبل فذمتي منه بريئة ، ولا يؤخذ منهم رجل بظلم آخر ، ولهم على ما في هذا الكتاب جوار الله ، وذمة محمد رسول الله أبدا «[٤٩]. ومن ذلك قول النبي ﷺ : « ألا من قتل نفسا معاهدة له ذمة الله وذمة رسوله فقد أخفر ذمة الله فلا يرح رائحة الجنة وإن ريحها لتوجد من مسيرة أربعين خريفا[٥٠].

ب : تطبيقات المسلمين في هذا الجانب :

ما كان المسلمون ليتخلفوا عن تعاليم نبيهم ﷺ ، بل عملوا على تطبيق هذا الجانب تطبيقا واقعيا ، فمن ذلك ما جاء في مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه : عن آسق قال « كنت عبدا نصرانيا لعمر ، فقال : أسلم حتى نستعين بك على بعض أمور المسلمين ، فإنه لا ينبغي لنا أن نستعين على أمورهم من ليس منهم ، فأبيت ، فأعتقني ، وقال : اذهب حيث شئت [٥١].

كما دأب المسلمون على التواصي فيما بينهم لرعاية أهل الكتاب وعدم المس بالعهود والمواثيق المبرمة معهم ، وتنزيل هذه الوصايا منزلة التطبيق العملي ، فنجد

٤٩- الخراج ، أبو يوسف ، ص ٧٨ ، وفتوح البلدان : ص٧٦ ـ ٧٧.

٥٠- رواه الترمذي ، ، باب ـ١١ـ ما جاء فيمن يقتل نفسا معاهدة، رقم الحديث ١٤٠٣٤ / ١٣ ، ت : كمال يوسف الحوت ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان .

٥١- مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي ، ت : د. زينب القاروط ، ص١١٦ ،دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

في كتبهم ما يشير إلى أن الإسلام لا يمنع أهل الكتاب من إقامة دينهم بحرية كاملة، بل يسمح لهم بإظهار شعائرهم في أراضيهم التي صولحوا عليها ، ولا يسمح لهم بإعلان ذلك في أرض المسلمين [٥٢]

وحالات إبراز الفتاوى في هذا الشأن كثيرة، فمن ذلك ما أفتى به عبد الله بن عباس رضي الله عنهما حينما سئل : عن اتخاذ الكنائس في أرض العرب ، فأجاب : « أما ما مصر المسلمون فلا ترفع فيه كنيسة ولا بيعة ، ولا بيت ولا صليب ، ولا ينفخ فيه بوق ، ولا يضرب فيه ناقوس ، ولا يدخل فيه خمر ، ولا خنزير ، وما كان بأرض صولحت فعلى المسلمين أن يفوا لهم بصلحهم » [٥٣].

ومن هذا يتبين لنا الفرق بين الأراضي التي افتتحها المسلمون ومصروا فيها الأمصار ، فلها حكمها الخاص ، أما الأرض التي صالحوا أهل الكتاب عليها ، فلهؤلاء الحرية فيما يفعلون ، و عليه فإن المسلمين حينما فتحوا بلاد الشام لم يهدموا شيئا من الكنائس التي كانت موجودة ، بل تركت على حالها [٥٤]. وقد كتب عمر بن عبد العزيز إلى عماله أن « لا تهدموا كنيسة ولا بيعة ولا بيت نار[٥٥]، كما أن أهل الكتاب » يقرون على الخمر والخنزير والربا إذا ستروه ، ولم يظهروه[٥٦]. وهو ما كان اتفاقا بين المسلمين وأهل الكتاب ، يقول ابن القيم: القسم الثاني : أن يفتحها المسلمون على أن تكون رقاب الأرض لهم ، فإذا وقع الصلح كذلك لم يتعرض للبيع والكنائس « . [٥٧]

٥٢- انظر : تاريخ الرسل والملوك ، للطبري ، ٤ / ١٥٨ .

٥٣- المصنف ، للصنعاني ، ٦ / ٦٠ .

٥٤- ٥٣ ـ الخراج ، أبو يوسف ، ص ١٤٨ ـ ١٤٩ .

٥٥- أحكام أهل الذمة ، محمد بن أبي بكر، ابن قيم الجوزية ، ٢ / ٦٩٠

٥٦- الكافي ، القرطبي ، ١ / ٤٨٤ .

٥٧- أحكام أهل الذمة ، ابن قيم الجوزية ٢: ٦٩٦ .

كانت هذه الفتاوى حاضرة في تطبيق المسلمين لها لأنها نابعة من أصول الدين ، وحينما كان الخلل يعتري بعض تصرفات أفراد الأمة تصدر الأوامر من قبل العلماء والفقهاء أو أولي الأمر بتصحيح هذا الخلل والعودة إلى الصواب مهما كلف الأمر ، فمن ذلك : أن الوليد بن عبد الملك لما أخذ كنيسة يوحنا من النصارى قهرا ، وأدخلها في المسجد اعتبر المسلمون ذلك من الغصب ، فلما ولي عمر بن عبد العزيز شكا إليه النصارى ذلك ، فكتب إلى عامله يأمره برد ما زاد في المسجد عليهم ، فاسترضاهم المسلمون ، وصالحوهم ، فرضوا [٥٨].

كما رد عمر بن عبد العزيز كنيسة كان الولاة السابقون قد أقطعوها لبني نصر بدمشق ، فخاصم أهل دمشق واليها ، ورفع الأمر إلى الخليفة فردها عمر إلى النصارى [٥٩].

كما لابد من الاعتراف بأن الإسلام قد أقر لأهل الذمة التصرف في أمورهم الخاصة ،كما ترك لهم إقامة شعائرهم الدينية ولم يمنع ما يفعلونه من تعظيمهم للصليب داخل بيوتهم وكنائسهم ، ولكن لا يظهرون ذلك في أسواق المسلمين، قال ابن القيم : « وقال إسحق بن منصور : قلت لأبي عبد الله : للنصارى أن يظهروا الصليب أو يضربوا بالناقوس ؟ قال» « ليس لهم أن يظهروا شيئا لم يكن في صلحهم .[٦٠]

كما لا يمنع الإسلام من إقامتهم الاحتفالات بذكرياتهم وأعيادهم الدينية في قراهم ، ولكن لا يحتشدون احتشاد المتظاهرين في مجتمعات المسلمين ،وينقل ابن القيم تفسير الإمام أحمد لذلك فيقول ،: إلا أن تكون مدينة صولحوا عليها

٥٨- فتوح البلدان ، البلاذري ، ص١٣١ ـ ١٣٢ .

٥٩- انظر : الأموال ، أبو عبيد ، ص ٢٤٤ .

٦٠- أحكام أهل الذمة ، ابن قيم الجوزية ، ٢ / ٧١٧ .

فلهم ما صولحوا عليه [٦١].

وإنصافا للمسلمين فإن المستشرقة» لورا فيشيا» تقر بهذه الحقائق فتقول : «إن تاريخ السنوات الأولى من الإسلام يقدم إلينا عددا من الأمثلة على التسامح الديني الذي أظهره الخلفاء الأولون نحو أتباع الديانات الموحدة • فكما أعطى الرسول ﷺ نفسه ضمانات إلى نصارى نجران بأن مؤسساتهم المسيحية سوف تصان ، وأصدر أمره إلى قائد إحدى الحملات العسكرية إلى اليمن بأن لا يؤذي أيما يهودي في يهوديته، فكذلك وجه الخلفاء إلى قادتهم العسكريين تعليمات مماثلة حول مسلك جيوشهم في الحرب ، ولقد حذا هؤلاء القادة المظفرون حذو محمدﷺ في عقد الاتفاقات مع الشعوب المغلوبة ، وبفضل هذه الاتفاقات منحت تلك الشعوب حرية الاحتفاظ بأديانها القديمة »[٦٢].

ويعترف المستشرق الإيطالي « جابرييلي» بما تمتع به أهل الذمة من حقوقهم الدينية في زمن الفتوحات فيقول : « ..فإلى جانب إسلام الفاتحين كان هناك تسامح مع الدين المسيحي الذي طورته إسبانيا بحيث أصبح لها أعيادها الدينية والثقافية وطقوسها الخاصة وكتابها وقديسوها[٦٣].

الفصل الثاني : شهادات أعلام الفكر الإنساني الحر على سمو الحضارة الإسلامية

وسماحة الإسلام وموقف أهل الكتاب منه :

٦١- المصدر السابق ، ٢ / ٧٢١ .

٦٢- دفاع عن الإسلام ، لورا فيشيا فاغليري، ص٣٥ ، ـ ت : منير البعلبكي ، ط: ١، ١٩٦٠م ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان .

٦٣- الإسلام في عيون غربية ، بين افتراء الجهلاء .. وإنصاف العلماء ، د. محمد عمارة ، ص٢٠٧ـ٢٠٨ ، ط : ١ / ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٥م ، دار الشروق ، بيروت ، لبنان .

المبحث الأول : شهادات المؤرخين الغربيين المنصفين على سماحة المسلمين مع غيرهم .

إن خير شاهد على التزام المسلمين بهذه المبادئ، تلك الشهادات التاريخية المتتابعة التي سجلها مؤرخو الغرب والشرق عن ارتقائهم إلى المستوى الحضاري في التسامح وعدم إجبار أحد - ممن تحت سلطانهم - على الدخول في الإسلام، بل إن التسامح قد بلغ بهم شأوا لم يبلغه أي دين آخر من الأديان خاصة في تعامل المسلمين مع أهل الملل والنحل ، ونجد طابع إعطاء الحرية الدينية سمة من سمات التسامح الإسلامي يتمثل في أقوال المستشرقين أنفسهم ، وفي هذا يقول المؤرخ «ول ديورانت»: «لقد كان أهل الذمة، المسيحيون والزرادشتيون واليهود والصابئون يستمتعون في عهد الخلافة الأموية بدرجة من التسامح، لا نجد لها نظيراً في البلاد المسيحية في هذه الأيام، فلقد كانوا أحراراً في ممارسة شعائر دينهم، واحتفظوا بكنائسهم ومعابدهم».[٦٤]

إن هذا التسامح كان مثار ترحيب وحفاوة من قبل شعوب البلدان المفتتحة، وفي هذا ويقول ديورانت أيضا : «وكان اليهود في بلاد الشرق الأدنى قد رحبوا بالعرب الذين حرروهم من ظلم حكامهم السابقين .. وأصبحوا مرة أخرى يتمتعون بكامل الحرية في حياتهم وممارسة شعائر دينهم في بيت المقدس ، وأثروا كثيرا في ظل الإسلام في آسية ، ومصر ، وأسبانيا ، كما لم يثروا من قبل تحت حكم المسيحيين ، وكان المسيحيون في بلاد آسية الغربية ، خارج حدود الجزيرة العربية يمارسون شعائر دينهم بكامل حريتهم ، وبقيت الكثرة الغالبة من أهل بلاد الشام مسيحية حتى القرن الثالث الإسلامي ، ويحدثنا المؤرخون أنه كان في بلاد الإسلام في عصر المأمون أحد عشر ألف كنيسة ، كما كان فيها عدد كبير من هياكل اليهود

٦٤- قصة الحضارة ، ول ديورانت ،١٣ / ١٣٠ ، ترجمة : محمد بدران ، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م ، ، دار الجيل، بيروت ، لبنان .

ومعابد النار ، .. وكان المسيحيون أحراراً في الاحتفال بأعيادهم علناً، والحجاج المسيحيون يأتون أفواجاً آمنين لزيارة الأضرحة المسيحية في فلسطين.. وأصبح المسيحيون الخارجون على كنيسة الدولة البيزنطية، والذين كانوا يلقون صوراً من الاضطهاد على يد بطارقة القسطنطينية وأورشليم والإسكندرية وإنطاكيا، أصبح هؤلاء الآن أحراراً آمنين تحت حكم المسلمين».[٦٥]. لم تكن روح التشفي والغدر تعرف طريقها إلى قلوب المؤمنين الذين كانت تجري في دمائهم روح المحبة الإنسانية ، وكيف لا ودينهم يدعو إلى إخراج الناس من الظلمات إلى النور .

وفي السياق ذاته يقول المستشرق» توماس آرنولد» : «لم نسمع عن أية محاولة مدبرة لإرغام الطوائف من غير المسلمين على قبول الإسلام أو عن أي اضطهاد منظم قصد منه استئصال الدين المسيحي .[٦٦]

إن الصورة الفريدة في تاريخ البشرية والتي تجلت في تسامح المسلمين ، وتعاليها عن التعصب الديني البغيض جعلت منهم أروع شعوب الأرض بل كما وصفها الحق تبارك وتعالى﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ . وينقل معرب «حضارة العرب» قول روبرتسن في كتابه «تاريخ شارلكن» ما يؤكد هذا المعنى : «إن المسلمين وحدهم الذين جمعوا بين الغيرة لدينهم وروح التسامح نحو أتباع الأديان الأخرى،.[٦٧]

وهناك حقائق واقعية تجعل من الصعب تجاهل الغربيين للتسامح الديني لدى

٦٥- قصة الحضارة ، ول ديورانت ، ١٣ / ١٣١ ـ ١٣٢ .

٦٦- الدعوة إلى الإسلام ـ ، توماس أرنولد ، ترجمة د. حسن إبراهيم حسن وأخرين ، ص ٩٨ ـ ٩٩ ،الطبعة الثالثة: ١٩٧٠ م ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة .

٦٧- حضارة العرب ، غوستاف لوبون ،تعريب : عادل زعيتر ، ص ١٢٨ .ط :١٩٦٩م، عيسى البابي الحلبي، القاهرة .

المسلمين ، مما حَدَا ببعض أحرار الفكر الإنساني على الدوام إلى المسارعة إلى الاعتراف بهذه السمات التي يتمتع بها المسلمون ، فمن ذلك ما قاله» توماس أرنولد» :» يجدر بنا أن نتبين كيف أن عدد الأهالي المسيحيين في نهاية القرن السابع الميلادي كان لا بد أن يكون قليلا جدا ـ وهذه حالة تجعل استمرار بقائهم في ظل الحكم الإسلامي أقوى دلالة على انعدام وسائل العنف والإكراه في التحول إلى الإسلام. [٦٨]

لقد بهرت هذه الحقائق المتجلية في أروع صورها عقول خصوم الإسلام ، فأخذوا يذرفون الدموع على ضعفهم وعجزهم عن مجاراة التسامح الإسلامي بل ويعيبون على بعضهم تأثرهم بهذا التسامح ، وذلك حسدا من عند أنفسهم، ولكن كلمة الحق لا بد أن تظهر ولو بين فلتات الألسن ، وينقل لنا «غوستاف لوبون» أيضاً عن الراهب «ميشود» في كتابه «رحلة دينية في الشرق» مدى انزعاجه من قوة انتشار الإسلام بالأخلاق وحسن المعاملة فيقول:

«ومن المؤسف أن تقتبس الشعوب النصرانية من المسلمين التسامح ، الذي هو آية الإحسان بين الأمم واحترام عقائد الآخـــرين وعدم فرض أي معتقد عليهم بالقوة». [٦٩].

لم يكن للأمر أن يستتب للمسلمين وهم يواجهون أعتى قوى الظلام في العالم آنذاك لولا سمو المبادىء الخلقية وحسن التعامل مع غيرهم وعلى رأسها قيم الأخلاق ، وهذا ما مكن المسلمين من العمل على اتساع فتوحاتهم شرقا وغربا لنشر مبادىء الحق والخير في ربوع العالم ، وهذا في حد ذاته رحمة من الله تعالى للبشرية ، ألم يقل الحق تبارك وتعالى (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) وكيف

٦٨- الدعوة إلى الإسلام ، توماس أرنولد، ص ١٤٤ .

٦٩- حضارة العرب ، غوستاف لوبون ،تعريب : عادل زعيتر ، ص ١٢٨ .

يكون الرسول رحمة وأتباعه ينشرون الرعب في قلوب البشر ؟ هذا لعمري بعيد جدا عمّن تربوا على موائد القرآن الكريم ، بهذه الروح الحضارية تقبل ذلك العالم القديم الفاتحين الجدد ، وفي هذا الصدد ينقل المؤرخ «ترتون» في كتابه «أهل الذمة في الإسلام» شهادة البطريك « عيشو يابه « الذي تولى منصب البابوية حتى عام ٦٥٧هـ قوله :» إن العرب الذين مكنهم الرب من السيطرة على العالم يعاملوننا كما تعرفون. إنهم ليسوا بأعداء للنصرانية ، بل يمتدحون ملتنا ، ويوقرون قديسينا وقسسنا، ويمدون يد العون إلى كنائسنا وأديرتنا [٧٠].

يقول المستشرق» مارسيل بوازار «في هذا المجال : « وكان المسلمون يهبون للذميين بالمقابل حق الإقامة على أرض الإسلام والاحتفاظ باعتقاداتهم الدينية ، والحماية من الأخطار الخارجية أو الداخلية ، وسلامة أنفسهم وممتلكاتهم ، وكذلك ضمان حرياتهم الأساسية ، وتشمل هذه الحريات مبدئيا ومع مراعاة القيود التي فرضتها في البداية ضرورة الأمن ، حرية المعتقد والعبادة ، وحرية الملكية والتجارة، والعمل ، وحرية التعاقد و الإيصاء ، إلى جانب احترام مؤسساتهم الخاصة ، وقد كان الذميون يحتفظون بالفعل بحق استخدام قوانينهم ومحاكمهم مع إمكان اللجوء إلى التشريع الإسلامي إذا رأوا ـ هم ـ أنفسهم ضرورة لذلك. [٧١] ويقدم لنا المؤرخ الإنجليزي السير «توماس أرنولد» في كتابه «الدعوة إلى الإسلام» صورة عن ذلك التسامح الذي اتصف به المسلمون فيقول : « ذلك التسامح الذي بسطه المسلمون الظافرون إلى العرب المسيحيين بتسامح عظيم في القرن الأول من الهجرة ، واستمر هذا التسامح في الأجيال المتعاقبة ، ونستطيع أن نستخلص بحق أن القبائل المسيحية التي اعتنقت الإسلام إنما فعلت ذلك عن اختيار وإرادة

٧٠- المرجع السابق ،ص ١٢٨.

٧١- إنسانية الإسلام ، مارسيل بوازار ، ت: : د. عفيف دمشقية ، ص ١٩٦ ، ط: ١ ، ١٩٨٠م ، دار الآداب ، بيروت ، لبنان .

حرة ، وإن العرب المسيحيين الذين يعيشون في وقتنا هذا بين جماعات المسلمين لشاهد على هذا التسامح .[٧٢] ويحق لنا أن نقول بعد ذلك : لقد كان التسامح الإسلامي هو الحبل المتين لإنقاذ المظلومين والمضطهدين من أهل الكتاب الذين لاقوا الأمرين على أيدي إخوانهم وأبناء جلدتهم .

تقول المستشرقة الألمانية» زيغريد هونكه» : « العرب لم يفرضوا على الشعوب المغلوبة الدخول في الإسلام، فالمسيحيون والزرادشتية واليهود الذين لاقوا قبل الإسلام أبشع أمثلة للتعصب الديني وأفظعها؛ سمح لهم جميعاً دون أي عائق يمنعهم بممارسة شعائر دينهم، وترك المسلمون لهم بيوت عبادتهم وأديرتهم وكهنتهم وأحبارهم دون أن يمسوهم بأدنى أذى، أو ليس هذا منتهى التسامح؟ ،

أين روى التاريخ مثل تلك الأعمال؟ ومتى؟». [٧٣]

كانت شكوى المضطهدين من ضعفاء أهل الكتاب ومساكينهم ترتفع من قلوبهم إلى حناجرهم مستصرخين ضمائر حكامهم وملوكم وأمرائهم كي يرحموهم من التعسف في تعاملهم معهم ، فلم تلق صدى سوى في أسماع أبناء أمة الرحمة.

وينقل لنا المؤرخ الإنجليزي «السير توماس أرنولد» صورا من أعجب صور تأثر مسيحيي وادي الأردن بالمسلمين الفاتحين عندما كتبوا لأبي عبيدة قائلين :» يا معشر المسلمين ، أنتم أحب إلينا من الروم ، وإن كانوا على ديننا ، أنتم أوفى لنا وأرأف بنا وأكف عن ظلمنا وأحسن ولاية علينا ، ولكنهم غلبونا على أمرنا وعلى منازلنا «[٧٤] .

٧٢- الدعوة إلى الإسلام ، توماس أرنولد ، ص ٦٩ ـ ٧٠ .

٧٣- شمس العرب تسطع على الغرب، زيغريد هونكه، ص٣٦٤، تعريب ، بيضون ،ودسوقي ،الطبعة الثامنة ، ١٤١٣ هـ ـ ١٩٩٣م ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان .

٧٤- الدعوة إلى الإسلام ، توما أرنولد ، ص٧٣.

لم تكن هذا المبادىء الفخمة لتطبق في هذه الآونة الذهبية من الزمن الماضي ـ أو في غيرها ـ لولا قوة عزيمة أصحابها الذين تباروا في تنفيذ تعاليم صاحب الرسالة الخاتمة محمد ﷺ ، يقول الفيلسوف الروسي « تولستوي» منوها بمناقب الرسول صلى الله عيه وسلم وتسامحه مع خصومه: « ومحمد ـ ﷺ ـ لم يقل عن نفسه إنه نبي الله الوحيد ، بل اعتقد بنبوة موسى وعيسى عليهما السلام ، وقال أيضا: إن اليهود والنصارى لا يكرهون على ترك دينهم ، وفي سني دعوة محمد ﷺ احتمل كثيرا من الاضطهاد من أصحاب الديانات القديمة ، شأن كل نبي قبله نادى أمته إلى الحق ، ولكن هذا الاضطهاد لم يثن عزمه بل ثابر على دعوته في قوة وثقة وإيمان لا مثيل له في التاريخ.[٧٥] لقد عرف التاريخ كثيرا من الفاتحين وغالبا ما اتسمت هذه الفتوحات بالعنف والقتل والتشريد والسرقة والغصب وسلب أموال الناس بالباطل وأكل حقوقهم ، هكذا بنيت إمبراطورية الروم وفارس ، والكلدان ، وأشور ، والفراعنة ...الخ .لكن المستوى الحضاري الرفيع في قيمه ومبادئه في هذه الفتوحات لم يصل إلى القمة السامقة في الرحمة والعدل والحق إلا في عصر الفتوحات الإسلامية .

يقول غوستاف لوبون في كتابه « حضارة العرب» عن عدالة العرب والمسلمين وتأثر غيرهم بهم : « إن القوة لم تكن عاملا في انتشار القرآن ، فقد ترك العرب المغلوبين أحرارا في أديانهم .. فإذا حدث أن انتحل بعض الأقوام النصرانية الإسلام واتخذوا العربية لغة لهم فذلك لما رأوا من عدل العرب الغالبين ولم يروا مثله من سادتهم السابقين ، ولما كان عليه الإسلام من السهولة

٧٥- انظر : الإسلام والرسول في نظر منصفي الشرق والغرب ، أحمد بن حجر آل بوطامي ، ص ١٣٧ ـ ١٣٨. ط:٢، ١٣٥٣هـ ، المطبعة السلفية ، جدة

وقارن مع كتاب الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، آدم متز ،، تعريب : محمد عبد الهادي أبوريدة ، ١ / ٨٧ـ ٨٨،ط : ٤ ، ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان.

التي لم يعرفوها من قبل [٧٦] ويقول أيضا : « وما جهله المؤرخون من حلم العرب الفاتحين وتسامحهم كان من الأسباب السريعة في اتساع فتوحاتهم وفي سهولة اقتناع كثير من الأمم بدينهم ونظمهم ولغتهم ،....فالحق أن الأمم لم تعرف فاتحين متسامحين مثل العرب ، ولا دينا مثل دينهم .[٧٧]

لقد ظلم المسلمون كثيرا جراء ألسنة المتطاولين على دينهم ومبادئهم خاصة من قبل المستشرقين الموتورين الزاعمين زورا أن الإسلام انتشر بحد السيف ، إن هذه الفرية لا يمكن أن تقف على ساق ؛ لأن وقائع التاريخ تكذبها وتفند أقوالها وردا على هذه المزاعم يقول إسحاق تايلور : رئيس الكنيسة الإنكليزية في مؤتمر الكنيسة : « الإسلام ينشر لواء المدنية التي تعلم الإنسان ما لم يعلم ، والتي تقول بالاحتشام في الملبس ، وتأمر بالنظافة والاستقامة ، وعزة النفس ، فمنافع الدين الإسلامي لا ريب فيها وفوائدها من أعظم أركان المدنية ومبانيها [٧٨] .إنها الشهادة على شموخ التسامح الحضاري الإسلامي الذي جاء على لسان أرفع رأس في الكنيسة الإنجليزية ، ويالها من شهادة !!!.

وإنه مما يحز في النفس ويدمي القلب تلك الشهادات التاريخية التي تذكر بذلك المجد التليد الذي ضاع من أيدي المسلمين ، وأصبح كما يقال ذلك الفردوس المفقود ، بماله من رونق بديع ، وأثر بهيج ، يقول المؤرخ »ول ديورانت» عن أسباب اعتناق كثير من النصارى للإسلام : « وعلى الرغم من خطة التسامح الديني التي كان ينتهجها المسلمون الأولون ، أو بسبب هذه الخطة اعتنق الدين الجديد معظم المسيحيين وجميع الزرادشتيين والوثنيين إلا عددا قليلا منهم...واستحوذ الدين الإسلامي على قلوب مئات الشعوب في البلدان الممتدة من الصين وأندونيسيا ،

٧٦- حضارة العرب ، غوستاف لوبون ،ص ١٢٧ ـ ١٢٨ ،

٧٧- المصدر السابق ، ص ٦٠٥ .

٧٨- الإسلام في نظر أعلام الغرب ، حسين عبد الله باسلامه ص ٣٧ .

إلى مراكش والأندلس ، وتملك خيالهم ، وسيطر على أخلاقهم ، وصاغ حياتهم ، وبعث آمالا تخفف عنهم بؤس الحياة ومتاعبها « [٧٩]

وعلى منهج النبوة سار أصحاب رسول الله تعالى في وصاياه ، وينقل لنا القلقشندي بأمانة في كتابه الضخم : صبح الأعشى ، نصوص العهود والمواثيق التي قطعها النبي محمد ﷺ مع أهل الكتاب ، وصورا من الأمانات ونصوصها الكثيرة التي اتبعها الخلفاء الراشدون ومن بعدهم ،إبان توليهم مهامهم ، وقطعوها لأهل الذمة والمستأمنين والمعاهدين [٨٠]، ومن ذلك مثلا ما قام به عمرو بن العاص رضي الله عنه الذي يضرب المثل بتسامحه طوال فتوحاته في مصر وغيرها ، حيث كتب لأهل الذمة الأمان على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم، وبرهم وبحرهم، لا يدخل عليهم شيء من ذلك ولا ينتقص ،[٨١] وتعلق «زيغريد هونكه «على مناقبه فتقول : «إن عمرا فاتح الاسكندرية هو نفسه عمرو الذي يضرب المثل بتسامحه طوال فتوحاته ، وحرم النهب والسلب والتخريب على جنوده ، وعمل ما كان غريبا عن فهم الشرقيين القدماء والمسيحيين على السواء : لقد ضمن صراحة للمغلوبين حرية ممارسة شعائرهم الدينية المتوارثة.[٨٢]

وقد أعجبت المستشرقة «هونكه» بأعمال «عمرو بن العاص» رضي الله عنه كثيرا ونقلت في كتابها نص نموذج من عقود الصلح مع الشعوب المنهزمة على تلك المعاني ، ومنها :

« هذا الاتفاق يشمل كل الرعايا المسيحيين ، كهنة ورهبانا وراهبات ، وهو

٧٩- قصة الحضارة ، (ص ١٢ / ١٣١.

٨٠- انظر: صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، أحمد بن علي القلقشندي ، ت: محمد حسين شمس الدين ، ١٣ / ٣٢١ ـ ٣٢٤، ط : ١ ، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان .)

٨١- المصدر السابق ، ١٣ / ٣٢٤ .

٨٢- انظر كتاب : شمس العرب تسطع على الغرب ص ٣٦٣

يضمن لهم الحماية والأمن أينما كانوا حسب مشيئتهم ، وبالمثل يحمي كنائسهم ومساكنهم وأماكنهم المقدسة ، وكذلك يحمي من يزور تلك الأماكن من جورجيا أو الحبشة يعاقبة كانوا أم نساطرة ، ويحمي كل من يؤمن بالنبي عيسى ، كل هؤلاء يجب مراعاتهم لأن الرسول(ﷺ)قد كرمهم في وثيقة تحمل خاتمه نبهنا فيها أن نكون معهم رحماء وأن نضمن لهم أمنهم .....

هذه صورة حية لتسامح المسلمين وسماحة عمرو ، وهي ليست بالوعود الجوفاء ، فقد احترمها المسلمون نصا وروحا ». [٨٣]

ونظرا للفوضى التي يعيشها عالمنا المعاصر ، فإن بعض الأقلام النظيفة التمست من تعاليم الرسول ﷺ نموذجاً لإرساء السلم العالمي بين الشعوب ومن ذلك ما كتبته دائرة المعارف البريطانية في الطبعة الحادية عشر، في مقالها عن النبي محمد ﷺ ذكرت فيه الميزات التي اختص بها منوهة بالقيم الحضارية التي قل نظيرها في تاريخ العالم أجمع ومنها :

«إن ميزة النبي العظمى ، هي وضع أساس السلم العالمي ، فهو لم يضع الأسس التي يعيش الأفراد بمقتضاها في سلام جنبا إلى جنب فحسب ، بل علمهم كيف تعيش القبائل والشعوب في سلام ووئام ،(ثم تتساءل) ألم يكن أعظم من ظهر على وجه الأرض ؟، ومع ذلك كان عظيم التواضع لا يعتبر نفسه إلا إنسانا عاديا كسائر البشر : (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي) في سورة الكهف ، كان يعتبر نفسه فردا من الأفراد ، له ما لهم من حقوق، وعليه ما عليهم من واجبات،.. حقوق للجميع متساوية ، وواجبات على الجميع متساوية لا فرق بين كبير وصغير ولا ذكر وأنثى ، ولا عربي وأعجمي ، وهذه هي عدالة الإسلام . [٨٤]

٨٣- شمس العرب تسطع على الغرب ، ص ٣٦٣.

٨٤- انظر :الإسلام والرسول في نظر منصفي الشرق والغرب، ص ١٣٥

كما أشار المستشرق «آدم متز» إلى التسامح الذي بذله المسلمون في رعاية أهل الذمة وينقل لنا في كتابه عن الحضارة الإسلامية ، كيف فتح المسلمون لغيرهم من أهل الكتاب حرية العمل فيقول : «ولم يكن في التشريع الإسلامي ما يغلق دون أهل الذمة أي باب من أبواب الأعمال ، وكانت قدمهم راسخة في الصنائع التي تدر الأرباح الوافرة ، فكانوا صيارفة وتجارا وأصحاب ضياع وأطباء ..[٨٥]

المبحث الثاني: موقف أهل الكتاب من القيم الحضارية للتسامح في الإسلام

كان الحديث في المبحث الماضي عن بعض شهادات المنصفين من المستشرقين الغربيين عن تسامح الإسلام وأهله مع أهل الكتاب ، وهم على أهميتهم ونبل أخلاقهم إلا أنهم قليل بجانب أقلام المستشرقين الحاقدين على الإسلام .

ومع ذلك فلا بد من الاعتراف بداية بتقصير المسلمين في مجال الدعوة الحقة إلى الإسلام ، وربما يعود ذلك إلى عدم التمكن من معرفة الأساليب الحديثة في الدعوة بما يتماشى مع روح العصر الحديث ، وبما لا ينتقص تعاليم الإسلام السمحة ولا يكون على حساب الدين ، وهذه الدعوة تتعلق بشخصية الدعاة إلى الله تعالى أولا ، ثم بمسؤولية أولي الأمر القائمين على شؤون الأمة ورعايتها.

ومن خلال استقراء تصرفات العالم الغربي مع المسلمين نجدهم يمارسون التفرقة العنصرية ، وهذا ظاهر في مجالات عدة كالسياسة ، والاقتصاد ، والتعليم، إلى غير ذلك من الجوانب الأخرى، وفي المقابل نرى أنه بات من الضروري دعوة أهل الكتاب إلى التخلي عن العنجهية والفوقية التي تتعامل بها دولهم الكبرى مع المسلمين على اعتبار أنهم من دول العالم الثالث ، بل يعتبرونهم أقل من ذلك ، فنراهم يخططون وينفذون ما يريدون دون رادع ، ولا وازع ، والمسلمون

٨٥- الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، آدم متز ، تعريب : محمد عبد الهادي أبو ريدة ، ١ / ٨٦ ،ط : ٤ ، ١٣٨٧هـ-١٩٦٧م ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان .

أصبحوا كالأيتام على موائد اللئام ليس لهم سوى السمع والطاعة ، وإلا اتهموا بالإرهاب ، وبات هذا الشعار سيفا مسلطا على رقابهم . وحالهم هذا ينطبق على قول الشاعر :

ويقضى الأمر حين تغيب تيم ولا يستأذنون وهم شهود

إن لحظة متأنية مع النفس تجعلنا ندعو أصحاب الفكر والقرار وأولي الأمر، إلى وقفة شجاعة يعاد فيها الاعتبار لأمجاد تلك الأمة العريقة ، بما تحمله من قيم حضارية نابعة من تعاليم نبيها ﷺ ، ومن كتاب الله تبارك وتعالى أولا ، ولبيان هذه الحقيقة الناصعة كان من الضروري إلقاء نظرة خاطفة على محورين هامين في هذا الجانب :

المحور الأول : ما كانت عليه أوروبا من جهل في المضمار الحضاري.
المحور الثاني : الوجه المشرق للحضارة الإسلامية ، وأثرها على الغرب.

المحور الأول : ما كانت عليه أوروبا من جهل في المضمار الحضاري :

ربما لا يعرف الكثيرون عن حضارة الإسلام وتمدنه واحتفائه بالعلوم على مختلف أنواعها ، وكثيرا ما نرى هؤلاء يهللون ويكبرون للحضارة الغربية بما فيها من غث وسمين ، لجهلهم بحضارة أسلافهم وآبائهم ، وعدم وقوفهم على الفرق بينهما .

لذا كان بالحري تذكير من يتناسون حقيقة الحضارة الإسلامية التي شع نورها من تعاليم المصطفى ﷺ بعد بيان ما كانت عليه أوروبا من جهل مدقع ،ليظهر الفرق بين الحضارة التي أرسى قواعدها نبي البشرية جمعاء محمد بن عبد الله ﷺ، وبين ضجيج حضارة الهمج.

إن حضارة المسلمين السالفة انتشرت بفضل تعاليم الإسلام السمحة ، فقد

أسسوا مدنية وحضارة رائعة فاقت الحضارات السالفة ونورت العالم أجمع ، وتتلمذت على يدها أوروبا ، حتى إن حضارتها المشاهدة مستفادة في الأصل من حضارة العرب المسلمين .

يقول الأستاذ محمد كرد علي : « في القرون التي كانت فيها العرب تنعم بلذائذ العقل والعمل وتتمتع بحضارة باسقة وتمدن زاهر ، وتأخذ في مسرات الحياة الفاضلة بأوفر نصيب ، في هذه القرون كان الغربيون متوحشين جاهلين، لايعرفون الترف ، ولا يتذوقون عيش الرفاهية لا أمن ولا إرادة ، ولا ملوك يعرفون واجبهم في إقامة العدل ، وتوطيد الأمن ، وهم في كل أحوالهم إلى حياة البوادي أقرب منهم إلى حياة المدن والحضارة.

وإلى القرن الماضي لم يعرف ملوكهم فضلا عن سوقتهم المراحيض ولا الحمامات ، ويبصقون على الطنافس والمقاعد حتى في قصور العظماء ، وكانت أوروبا في ذلك العهد غاصة بالغابات الكثيفة ، متأخرة في زراعتها ، كانت البيوت في باريس تبنى بالخشب والطين المعجون بالقش والقصب ، ولم يكن فيها منافذ ولم يكونوا يعرفون النظافة ، ويلقون بأحشاء الحيوانات وأقذار المطابخ أمام بيوتهم ، فتتصاعد منها روائح مزعجة ، ،ولم يكن للشوارع مجار ولا بلاط ولا مصابيح ، قال «درابر» : وكان من أثر ذلك أن عمت الجهالة أوروبا ، وساورتها الأوهام ، فانحصر التداوي في زيارة الأماكن المقدسة ، ومات الطب وحييت أحابيل الدجالين ، وكلما دهم البلاد وباء ، فزع رجال الدين إلى الصلاة في الكنيسة وأغفلوا أمر النظافة فكانت الأوبئة تفتك بهم فتكا ذريعا ، وقد زارت أوروبا مرارا فاجتاحت الملايين من أهلها في أيام قليلة .

وكانت أوروبا تحت سلطة البابوات يتصرفون فيها على هواهم ، والناس تائهون في ظلام الجهالة ، وبينما هم كانوا في تلك الحالة التعسة والمعيشة النكدة،

والجهل السائد والأوهام والخرافات المتفشية كان النور يسطع من جانب الأمة الإسلامية .[٨٦]

المحور الثاني : الوجه المشرق للحضارة الإسلامية في تسامحها ، وأثرها على الغرب:

في هذه العجالة يجدر الحديث عن لمحات من الحضارة الإسلامية وأثرها على الحضارة الغربية .فبينما كانت أوروبا غارقة في دياجير الجهالة كانت الحضارة الإسلامية يشع نورها بفضل العلوم والفنون التي زينت حواضرها العامرة بالآداب والصناعات والاكتشافات ، وأعمال يدوية إلى غير ذلك من النشاطات التي حفلت بها بغداد والبصرة وسمرقند ودمشق والقيروان ومصر وفارس وغرناطة وقرطبة .[٨٧]

كانت هذه الحواضر مراكز العلوم العظيمة ، أما عواصم أوروبا التي ندهش بها اليوم فكانت أشبه بقرى لا علم لها ولا عمران ، وهي متأخرة في شؤونها المادية والأدبية كافة ، وما كانت في دار الإسلام مدرسة ولا جامع ولا بلد ولا دار كبرى تخلو من خزائن كتب مسبلة على المطالعين ، هذا مع عزة المخطوطات في ذلك العهد يجتمع في تلك الدور العالمون يقرؤون ويتباحثون ويتدارسون ـ تساوى في ذلك الرجال والنساء ، وكانت المعارف في المدن والقرى وفي الأندلس خاصة مبذولة لكل طالب ، حتى قال أحد مؤرخي الإفرنج : إن معظم سكان إسبانيا الإسلامية كانوا يقرؤون ويكتبون في زمن كان أهل الطبقة العليا في أوروبا النصرانية أميين، لا يقرؤون عدا أفراد قلائل من الشمامسة جعلوا الكتابة صناعة لهم .

٨٦- انظر : الإسلام والرسول في نظر منصفي الشرق والغرب ، أحمد بن حجر آل بوطامي ، ص ٩٢ـ٩٣

٨٧- المرجع السابق ، ص ٩٢

وغصت ديار المسلمين بالمجامع العلمية مؤلفة من علماء لا ينظر في اختيارهم إلى الدين الذين يدينون به ، بل يراعى فيه علمهم واختصاصهم ، وكان الخلفاء والملوك والعظماء يجمعون المشتغلين في قصورهم يتذاكرون أصناف العلوم وما كان يخلو مجلس من علماء أو عالم ينصت الحضور له ويأخذون عنه .[٨٨]

يقول المؤرخ الشهير المعاصر « ولز » عن التعاليم في الحضارة الإسلامية : إنها أسست في العالم تقاليد عظيمة للتعامل العادل الكريم ، وإنها لتنفخ في الناس روح الكرم والسماحة ، كما أنها إنسانية السمة ، ممكنة التنفيذ [٨٩].

إن هذه الجهود الكبيرة التي قام بها الفاتحون المسلمون شرقا وغربا كانت مثار دهشة المؤرخين والعلماء والفلاسفة للسرعة الهائلة التي انتشر فيها الإسلام في ربوع الأرض ، وقد آن الأوان للكشف عن هذا السر العظيم الذي حير الألباء .

إن التعاليم الإسلامية السامية وأخلاق نبوة محمد ﷺ في إقامة العدل وإشاعة روح التسامح مع أهل الكتاب وغيرهم هي التي بعثت في نفوس الناس الطمأنينة والأمان ، وجذبتهم نحو هذا الدين الذي أشرق نوره بمولد المصطفى ﷺ ، وفي هذا يقول أحد كبار شعراء النصارى في شرقنا العربي، يتحدث عن هذا الشعاع الغامر فيقول :

غمر الكون بأنوار النبـــوة ... كوكب لم تدرك الشمس علوه
لم يكد يلمع حتى أصبحت ... ترقب الدنيا ومن فيها دنـــوه
بينما الكـــون ظلام دامس ... فتحت في مكة للنور كـــوه
يـــا رسول الله إنا أمـــة ... زجها التضليل في أعمق هـــوه

٨٨- انظر : الإسلام والرسول في نظر منصفي الشرق والغرب ، أحمد بن حجر آل بوطامي ، ص ٩٢ ـ ٩٣

٨٩- من روائع حضارتنا ، د. مصطفى السباعي ، ص ١٤٦ ، ط : الأولى ، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م ، دار الوراق للنشر ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، لبنان .

قل لأتباعك صلوا وادرسوا إنما الدين هدى والعلم قـــوه [٩٠]

هذه الحقائق النورانية هي التي دعت غير المسلمين من أهل الكتاب ومن هم في مرتبتهم إلى النظر بجدية نحو هذا الدين ، وإن التسامح الذي أبداه المسلمون الفاتحون نحو الشعوب التي دخلت في دين الله أفواجا هو قطب الرحى الذي داروا حوله وذابوا في بوتقته : « إن الســادة و الحكام المسلمين الجدد لم يزجوا بأنفسهم في شئون تلك الشعوب الداخلية ، فبطريرك بيت المقدس ـ مثلا ـ يكتب في القرن التاسع لأخيه بطريرك القسطنطينية عن العرب : « أنهم يمتازون بالعدل ، ولا يظلموننا البتة ، وهم لا يستخدمون معنا أي عنف »[٩١].

إن الحرية التي جاء بها المسلمون الفاتحون لم تكن ثمرة جهد طويل وعناء كبير كالذي ذاقته البشرية عبر تاريخها الطويل ، بل كان هبة ربانية تمثلت في تعاليم الدين الحنيف،وكان انتشارها في زمن يسير .

إن هذه الحرية أتاحت للشعوب المغلوبة فرصة للتنفس ، فلا تجد إطلاقا إكراها من قبل المسلمين لها للدخول في الإسلام ، لكن هذه الشعوب هي التي شاءت الدخول في الإسلام ليفيدوا من المزايا المادية والاجتماعية التي تمتع بها المسلمون ، ودون أي إجبار على انتحال الدين الجديد اختفى معتنقو المسيحية اختفاء الجليد تشرق عليه الشمس بدفئها ، ولم تظهر أية عصبية دينية أو إرغام على انتحال الإسلام إلا فيما بعد وتحت تأثير عوامل أخرى لا تمت إلى الدين بصلة.[٩٢]

٩٠- هذه الأبيات للشاعر إلياس فرحات أحد شعراء المهجر الجنوبي ، له تجارب قاسية مع الحياة جعلته يكثر من شعر الحكمة والأمثال . الياس فرحات (١٨٩٣ ـ ١٩٧٦) شاعر مهجري، ولد في قرية كفر شيما اللبنانية، وهي مسقط رأس اليازجي وآل شميل. وآل تقلا، أصحاب جريدة الاهرام. هاجر إلى البرازيل . انظر: http://ar.wikipedi a

٩١- شمس العرب تسطع على الغرب ، زيغريد هونكه ، ص ٣٦٤ .

٩٢- المرجع السابق ، ص ٣٦٥ .

إن دعوى التسامح عند المسلمين ليست قابلة للنقاش في دينهم ، وليست ترفا في مفاهيمهم ، بل هي قاعدة أصيلة من أركان العقيدة عندهم ، وهذا التسامح ليس شعارا أجوف ، بل هو واقع معاش ، لا زيف فيه ولا خداع ، وهو « يختلف تماما عما يتشدق به خصوم الإسلام .

ولا بد من الاعتراف بالسبب الحقيقي الذي يجعل من المسلم نموذجا وقدوة يحتذى بها ، وعليه فإن أخلاق النبوة دعت إلى الألفة والمحبة ، ومن ذلك قول المصطفى ﷺ :«المؤمن يألف و يؤلف ، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف، وخير الناس أنفعهم للناس» [٩٣].

لهذا نجد أن المسلم يعامل الناس بحسب هذه الطباع اللطيفة ، لقد كان التأثير بالغا في الأمم التي مر المسلمون عليها ، وجعل الآخرين يدركون هذه الأهمية من خلال ملاحظة الفرق بين هذه الشهامة التي يتمتع ويمتاز بها المسلم عن غيره .

لقد أدت هذه الصفات إلى «تحرر أصحاب المذاهب المسيحية كالنساطرة والقائلين بطبيعة واحدة للمسيح .. من اضطهاد كنيسة الدولة فتنتشر مذاهبهم بحرية ويسر ، وكما تميل الزهرة إلى النور ابتغاء المزيد من الحياة ، هكذا انعطف الناس ، حتى من بقي منهم على دينه ، إلى السادة الفاتحين ، يقلدونهم في طرق معيشتهم وسلوكهم ـ ويتمثلون بأخلاقهم ، ويأخذون عنهم لغتهم ويسمون أولادهم تسميات عربية ، وبمرور الوقت يصير ملبسهم ومعيشتهم وسلوكهم عربيا . حتى إن الطبيب من بعلبك والتاجر من الموصل ، وطالب الفلسفة من غرناطة ليلتقون في سوق القاهرة أبناء شعب واحد لا يستطيع أحد أن يفرق

٩٣- رواه الدارقطني، وحسنه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، رقم الحديث (٤٢٦) ، ١ / ٧١٢-٧١٣، ط : الرابعة ، ١٤٠٥هـ-١٩٩٥م ، المكتب الإسلامي ، بيروت، لبنان .

بينهم [٩٤].

هكذا نستطيع أن نرى ثمرة الموقف الحضاري للنبي محمد ﷺ في التسامح مع أهل الكتاب ، لقد أنشأ الإسلام حضارة مترامية الأطراف، كان شعاعها يصل إلى أقاصي المعمورة ، فاستظلت بظلها شعوب الأرض ، ولبست البشرية حلة قشيبة لم تتزين بها من قبل ، ونعمت بالأمن والأمان بما لم ينعم به الأوائل. إن هذا التلاحم في المجتمع الإسلامي على الرغم من التنوع الديني فيه إلا أنه كان يمثل بحق موقفا حضاريا فذا قلما نجده في المجتمعات القديمة، وحتى الحديثة ، وغني عن القول أن المجتمعات الغربية اليوم عملت على صهر أفرادها في مجتمعات تزعم أنها تدين بالحرية ،إلا أن هذه المجتمعات لجأت إلى هذا النوع من الاندماج لحاجتها ومصلحتها المادية فقط ولما شعرت به من ضيق الدنيا إبان حكم الطغيان الكنسي في أوروبا أثناء العصور الوسطى، و على الرغم مما وصلت إليه الآن إلا أن هذه القوانين ليست ثابتة بل من الممكن أن تتبدل كلما لاحت في الأفق نزوة بشرية ، أو تبعا لهوى مصطنع متبع ، سرعان ما تتحول هذه الحرية، لتصبح جحيما لا يطاق من التضييق والتعسف ، وما الانقلابات العسكرية إلا واحدة مما أفرزته النظم الغربية لشعوبها و التي باتت تقلب ظهر المجن لها ، أو الارتكاسات المالية والاقتصادية التي تودي وتعصف بثروات البلاد، وتفقر العباد. فكلما دخلت طغمة في هذا المضمار لعنت أختها ونحن لا نزعم إطلاقا أن المجتمعات الإسلامية بريئة من الأخطاء ، فهي حاصلة ولا ريب ، لكن الأكيد في هذا الأمر أيضا يعود إلى سوء في التطبيق من بعض الأفراد أو الولاة الذين ابتليت بهم الأمة، هذا في المقام الأول، والثاني ما تعرض له هذا الدين من كيد أعدائه ومؤامرات خصومه.

٩٤- شمس العرب تسطع على الغرب ، ص ٣٦٦ .

لكن الصورة الأغلب والأعم أن الإسلام حينما طبق على وجهه الصحيح بكل تعاليمه ووصاياه ، وحينما توفرت له الظروف الملائمة ، وتهيأت له النفوس المؤمنة فإن ما أعطاه الإسلام كان نابعا من أركان هذا الدين ، وهو ثابت ولا يتغير تبعا للهوى ، أو للعصبية.

وفي المجتمع الإسلامي كذلك، فإن غير المسليمن « لم يكن ثمة إكراه (لهم) من سلطة ، يدخل بين هذا وذاك ، ولكنها الحاجة دفعتهم إلى هذا التشبه الكامل ليدخلوا في عالم أولئك العرب ، وكان المسيحي أو اليهودي يشعر بالفخر والعزة إذا حمل اسما عربيا ما وسعه الشعور[٩٥].

من هنا يجب الوقوف عند افتراء خصوم الإسلام عليه والأكاذيب التي تحاك ضده ، ومنها دعوى انتشاره بالسيف ، وأن ما جاء به محمد ﷺ ما يبشر إلا بالسوء. [٩٦]

٩٥- شمس العرب تسطع على الغرب ، ص ٣٦٦ .

٩٦- ألقى بابا الفاتيكان بنديكت السادس عشر محاضرة في جامعة ريجينسبورج بولاية بافاريا الألمانية الثلاثاء ١٢-٩-٢٠٠٦ كان عنوانها: «الإيمان والعقل والجامعة ذكريات وانعكاسات»، وقد استشهد البابا بنصوص مسيئة إلى الإسلام ونبيه محمد ﷺ ، ودار مضمونها حول الخلاف التاريخي والفلسفي بين الإسلام والمسيحية في العلاقة التي يقيمها كل منهما بين الإيمان والعقل.ثم انتقل للحديث عن العلاقة بين العقل والعنف في الديانة الإسلامية والخلاف في هذا الصدد بين الديانتين الإسلامية والمسيحية، واستشهد بهذه المناسبة بكتاب يفترض أنه للإمبراطور البيزنطي مانويل الثاني (١٣٥٠-١٤٢٥) وفي هذا الكتاب الذي يحمل عنوان «حوارات مع مسلم المناظرة السابعة»، وقدمه ونشره في الستينيات عالم اللاهوت الألماني اللبناني الأصل تيودور خوري من جامعة مونستر، يعرض الإمبراطور الحوار الذي أجراه بين ١٣٩٤ و١٤٠٢ على الأرجح مع علامة فارسي مسلم مفترض....
وبدون أن يتوقف عن التفاصيل، مثل الفرق في معاملة (الإسلام) للمؤمنين وأهل الكتاب والكفار، طرح الإمبراطور على نحو مفاجئ على محاوره(...) السؤال المركزي بالنسبة لنا عن العلاقة بين الدين والعنف بصورة عامة. فقال: أرني شيئا جديدا أتى به محمد، فلن تجد إلا ما هو شرير ولا إنساني، مثل أمره بنشر الدين الذي كان يبشر به بحد السيف».انظر: أحمد المتبولي – إسلام أون لاين.نت وقد أثارت هذه المحاضرة ردود فعل عنيفة من قبل المسلمين في العالم ، ولم تهدأ حتى الآن.وهذا ما شجع بعض الدائمركيين مجددا على التعرض لشخص النبي ﷺ .

المبحث الثالث ـ تنكر أهل الكتاب للقيم الحضارية في التسامح الإسلامي ، وفيه :

أولا ـ ما لقيه المسلمون من خصومهم :

بعد انحسار المد الإسلامي في أوروبا وبعد سقوط أغلب مدن الأندلس في يد الكاثوليك على أيدي فريدناند الذي استطاع أن يستولي على معاقل المسلمين مثل طليطلة وقشتالة وقرطبة ،وبقيت غرناطة تحت إمرة بني الأحمر ، وإزاء الضغط الكبير من قبل فريدناند اضطرت غرناطة إلى الاستسلام سنة ٨٩٧هـ ١٤٩١م [٩٧].ورفع الصليب على الشرفات العليا في المدينة ، وأصبحت إسبانيا مملكة كاثوليكية ، وأزيل عنها اسم الإسلام وكل شاراته ، وبقي المسلمون المساكين في حماية المسيحية ، ومرت سبعة أعوام وهم في حرمان من غذائهم الديني ، ولا يمارسون طقوسهم إلا بمشقة ، وفي سنة ١٤٩٩م، قاد الكاردينال «شمينيه» حملة اضطهاد عنيفة تحمل المسلمين على ترك دينهم واعتناق النصرانية ورأى أن يبدأ حملته بإحراق الكتب الإسلامية حتى لا يقرأها المسلمون ، فأحرقت ثم بدأت محكمة التفتيش أعمالها الوحشية ، فكانت تعاقب كل من بدا عليه مظهر إسلامي، وسموا المسلمين « المورسكو» أي المسلمين الصغار ، وحرموا تعلّم اللغة العربية....

وكانت حركة التنصير هذه تشتد عاما بعد عام ، ففي مستهل القرن السادس عشر صدر قرار ملكي بارتداد المسلمين في»قشتالة «و «ليون» عن دينهم إلى النصرانية أو الجلاء عن البلاد ، ثم بعد مدة وجيزة صدر قرار مثله في «أرجون»، ثم أصدر «فليب الثاني» سنة ١٥٥٦م قرارا أجرأ و أوسع دائرة ، قضى فيه أن

٩٧- انظر: معركة التبشير والإسلام ، د. عبد الجليل شلبي ، ص ٢٣٢-٢٣٣ ط : الأولى ، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م ، مؤسسة الخليج العربي ، القاهرة .

يهجر المسلمون لغتهم وعاداتهم ، وأفتى بعض القسس بأن المسلمين نجس .

وفي سنة ١٦٠٩م أصدر فليب الثالث أمرا بطرد المسلمين من البلاد نهائيا ، فقد عاش المسلمون إذن قرنا وبعض القرن في هوان ومعاناة ثم طردوا[٩٨].

وليست حادثة دخول الصليبيين إلى بيت المقدس وإقامة المذابح فيها بعد الاستيلاء عليها إلا واحدة من أفظع الجرائم في التاريخ ، وكان الصليبيون يسمون المسلمين بالكفرة والوثنيين ، ويروي صاحب كتاب » أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس « تفاصيل هذه المجزرة ، نقتطف بعضا مما جاء فيه ، فيقول :»فلما ولج حجاجنا المدينة وجدوا في قتل الشرقيين ومطاردتهم حتى قبة عمر ، حيث تجمعوا واستسلموا لرجالنا الذين عملوا فيهم أفظع القتل طيلة اليوم بأكمله ، حتى لقد فاض المعبد كله بدمائهم ، ولما تم لرجالنا الغلب على الكفرة عثروا في المعبد على فئة كبيرة من الرجال والنساء ، فقتلوا البعض وأبقوا على الذين أحسنوا بهم الظن ،[٩٩].

ثم يصف صور الجثث التي تكدست في الشوارع فيقول : « وتعالت أكوامهم حتى حاذت البيوت ارتفاعا وما تأتي لأحد قط أن سمع أو رأى مذبحة كهذه المذبحة التي ألمت بالشعب الوثني [١٠٠].

إن هذه الجرائم والمجازر التي ارتكبت في حق المسلمين لم تكن مجرد ادعاء بل كانت واقعا يشهد التاريخ عليها ، لقد أكد الدكتور «غوستاف لوبون» هذه الحقائق ، ونقل لنا صورا من أبشع ما ينقله مؤلف عن مجزرة ، فيتحدث عنها قائلا :

٩٨- المرجع السابق ، ص ٢٣٤ .

٩٩- أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، ترجمة : د. حسن حبشي ، ص ١١٨ ـ ١١٩ ، دار الفكر العربي..

١٠٠- المرجع السابق ، ص١١٩ ـ ١٢٠ .

« وعاهد فرديناند العرب على منحهم حرية الدين واللغة ، ولكن سنة ١٤٩٩م لم تكد تحل حتى حل بالعرب دور الاضطهاد والتعذيب الذي دام قرونا ، والذي لم ينته إلا بطرد العرب من إسبانيا ، وكان تعميد العرب كرها فاتحة ذلك الدور ، ثم صارت محاكم التفتيش تأمر بإحراق كثير من المعمدين على أنهم من النصارى ولم تتم عملية التطهير بالنار إلا بالتدريج لتعذر إحراق الملايين من العرب دفعة واحدة ، ونصح كردينال طليطلة التقي ، الذي كان رئيسا لمحاكم التفتيش ، بقطع رؤوس جميع من لم ينتصر من العرب رجالا ونساء وشيوخا وولدانا [١٠١]

إن هذه الشهادة من مؤرخ وفيلسوف فرنسي كافية للدلالة على كذب وافتراء أعداء الإسلام ، وأكاذيب خصومه، كما تظهر مدى الحقد الدفين لدى الصليبيين ، وعدم التسامح مع الآخر .

وتزداد شراسة الحاقدين على الإسلام من خلال الذل الذي لقيه المسلمون إبان طردهم من إسبانيا وقد أبدى «غوستاف لوبون «أسفه البالغ لما أصاب إسبانيا بعد أن خسرت مليون مسلم من رعاياها في بضعة شهور ، فيقول : «ولم ير الراهب الدومينكي ، «بليدا» الكفاية في ذلك فأشار بضرب رقاب من تنصر من العرب ومن بقي على دينه منهم ، وحجته في ذلك أن من المستحيل معرفة صدق إيمان من تنصر من العرب ، فمن المستحب إذن قتل جميع العرب بحد السيف لكي يحكم الرب بينهم في الحياة الأخرى ويدخل النار من لم يكن صادق النصرانية منهم [١٠٢].

ويكاد المرء يذهل من الأرقام التي أوردها «لوبون «عن ضحايا المجازر من المسلمين في الأندلس وذلك عندما قال :

١٠١- حضارة العرب ، غوستاف لوبون ، ص ٢٧٠ ـ ٢٧١ .

١٠٢- المرجع السابق ، ص ٢٧١

وفي سنة ١٦١٠ م ، أمرت الحكومة الإسبانية بإجلاء العرب عن إسبانيا، فقتل أكثر مهاجري العرب في الطريق ، وأبدى ذلك الراهب البارع ، بليدا ، ارتياحه لقتل ثلاثة أرباع هؤلاء المهاجرين في أثناء هجرتهم ، وهو الذي قتل مئة ألف مهاجر من قافلة واحدة كانت مؤلفة من ١٤٠،٠٠٠ مهاجر مسلم حينما كانت متجهة إلى إفريقيا .... ويقدر كثير من العلماء ومنهم «سيديو» عدد المسلمين الذين خسرتهم إسبانية منذ أن فتح فرديناند غرناطة حتى إجلائهم الأخير بثلاثة ملايين ولا تعد ملحمة «سان بارتلمي» أزاء تلك المذابح سوى حادث تائه لا يؤبه له .. (ويتابع معترفا بمرارة): ولا يسعنا سوى الاعتراف بأننا لم نجد بين وحوش الفاتحين من يؤاخذ على اقترافه مظالم قتل كتلك التي اقترفت ضد المسلمين [١٠٣].

إن تاريخ الحملات الصليبية الأسود ضد المسلمين لا يمكن أن يمر دون التنويه بالتعاون الصهيوني المسيحي في العصر الحديث ، وما يقوم به هذا الثنائي من أعمال ضد المسلمين في كثير من بقاع الأرض.

لقد تبين لنا مما سبق كيف عامل المسلمون أهل الكتاب ، كما رأينا تعاليم الإسلام السمحة بحقهم ، وتصرفات الخلفاء الذين اتبعوا أوامر الله تعالى ، ووصايا رسوله ﷺ ، وفي المقابل رأينا كيف قلب أهل الكتاب للمسلمين ظهر المجن ، فاختلفت المعاملة ، وأريقت دماء المسلمين على تراب الأندلس ، وعلى أراضيهم إبان الحروب الصليبية في بلاد الشام وغيرها ، وعلى العاقل أن ينظر إلى هذه المفارقات بعين ثاقبة ، وفكر منفتح حتى يرى الفرق والبون الشاسع ، بين حضارتنا الإسلامية ، وحضارتهم الهمجية .

ولم تكن هذه الصور المتقابلة بين منهجين لتختفي عن أنظار بعض الأحرار

١٠٣- حضارة العرب ، غوستاف لوبون ، ص٢٧٢ .

في هذا العالم عن الظلم الذي لحق بالإسلام والمسلمين ، فالفيلسوف» توماس كارليل» يدافع عن الإسلام وتعاليمه ويرد على ادعاء المبشرين بأن الإسلام قد انتشر بالسيف ، ويعدد مزايا النبي محمد ﷺ ، ويصف أخلاقه ومعاملته ، وصحة نبوته ، ويقارن بين الإسلام السمح والمسيحية الحاقدة[١٠٤] «

كما أن كتب التاريخ شاهدة على التعسف الذي لقيه المسلمون من قبل الحاقدين الصليبيين وغيرهم ، بل إن التاريخ نفسه يشهد للمسلمين ذلك الرقي العلمي والتقدم الحضاري المبني على احترام الآخر ، ومع ذلك فإن الغربيين في عصرنا الحاضر ينكرون هذه الحقائق ويرفضون الاعتراف بأنهم ورثة الحضارة الإسلامية ، بل لا يذكرون محاسن الحضارة الإسلامية ، وما لها من آثار على الحضارة الحالية ، بل ينسبون تقدمهم إلى الحضارة الإغريقية.

غير أن الأمانة العلمية تقتضي منا ذكر مقال أحد رجال الفكر الحر فيهم وهو الذي آثر فضح هذا العقوق ، ولم يرتض السكوت على الظلم فانبرى يفجر ما يكنه في صدره من ألم ، وهو الماجور « أرثر ليونارد « الذي قارن أولا بين انتشار الإسلام في العالم بيسر بفضل تعاليمه السمحة ، وبين الأعمال التنصيرية التي تقوم بها الكنيسة ، رافضا أساليبها ضد المسلمين ، فيقول :

« يجب أن تكون حال أوروبا إزاء الإسلام بعيدة من كل هذه الاعتبارات الثقيلة ، فتكون حالة شكر أبدي بدلا من نكران الجميل الممقوت والازدراء المهين. فأوروبا لم تعترف قط إلى يومنا هذا بإخلاص طوية وقلب سليم بالدين العظيم المقيم إلى الأبد الذي تدان به إلى التربية والمدنية الإسلامية ، اعترفت به بفتور وعدم اكتراث عندما كان أهلها غارقين في بحار الهمجية ، والجهل في العصور

١٠٤- انظر :الإسلام في نظر أعلام الغرب ، حسين عبد الله باسلام ، ص ٩٥-٩٦ .

المظلمة .[١٠٥]

ثم يعترف بصراحة ما للحضارة الإسلامية من فضل على أوروبا ، موجها لومه إلى أبناء جلدته قائلا :

« المدنية الإسلامية عند العرب وصلت إلى أعلى مستوى في العظمة العمرانية والعلمية ، حتى أحيت جذوة المجتمع الأوروبي المشتعلة وحفظته من الانحطاط ، ألم نعترف نحن الذين نعتبر أنفسنا في أعلى قمة التهذيب والمدنية، بأنه لولا التهذيب الإسلامي ومدنيته وعلمه وعظمة العرب العمرانية وحسن نظام مدارسهم لكانت أوروبا إلى اليوم غارقة في ظلمات الجهل ؟، هل نسينا أن التسامح الإسلامي كان يختلف اختلافا شديدا عن الحالة التي لا تطاق التي كانت عليها اوروبا إذ ذاك ؟ هل نسينا أن الخلافة نشطت في أيام أعظم انحطاط الرومان والفرس ، وأن السواد الأعظم من أوروبا كان نائما تحت سحابة الوحشية السوداء القاتمة ؟ [١٠٦] .

ثانيا ـ كيفية تلافي الأخطاء ، واستخدام الوسائل الحديثة في نشر القيم الحضارية الإسلامية:

لقد بات من الضروري إعادة النظر في المناهج والخطط الدراسية الخاصة بالتعليم التربوي الإسلامي و التي تعتمد اليوم ـ في غالبها ـ على الجوانب التعبدية فقط دون النظر في الجوانب الفكرية الحضارية والخلقية على وجه التحديد، وإن وجدت في بعض المناهج ، فإنها لا تتعدى القشور ، وهذا الوضع يؤدي إلى الجمود في واقع حياة الأمة ، ويبقيها على حالة التبعية لخصومها أولا، والتأخر في مضمار الرقي الحضاري ثانيا ، وللخلاص من ذلك يجب الاعتماد على

١٠٥- الإسلام والرسول في نظر منصفي الشرق والغرب ، أحمد بن حجر آل بوطامي ، ص١٦٤ ـ ١٦٥ .
١٠٦- المرجع السابق / ص ١٦٤ ـ ١٦٥ .

الخطط المرنة الكفيلة باستنهاض همم أبناء الأمة ، وتوعيتهم بالمسؤولية الملقاة على عاتقهم لإيجاد الحلول الناجعة لمشكلاتهم العلمية ، والاجتماعية والسلوكية ، والاقتصادية، ولعل الجانب الاقتصادي اليوم يشكل حجر الأساس في انطلاق علماء الأمة لإخراج البشرية من شبح الانهيار الاقتصادي العالمي و ربما من سخرية هذا الزمن أن ينادي أساطين الفكر الاقتصادي العالمي بضرورة تطبيق المنهج الاقتصادي الإسلامي للخروج من الأزمة العالمية التي باتت تهدد البشر ، في حين أن العالم الإسلامي يقف حيال ذلك دون حراك.إن الفرصة قد أضحت سانحة اليوم لإعادة الاعتبار إلى القيم الحضارية ، لحاجة الإنسانية إليها .

إن التراث الإسلامي بما يحمل من قيم حضارية خاصة فيما يتعلق بالتسامح من تعاليمه قمين بتحقيق النهوض المنشود ، لقد أضحت البشرية عطشى لنفحات الإسلام السمحة خاصة بعد أن تفاقمت الأحوال المزرية لدى مجتمعات أهل الكتاب ، وباتت شعوبها مهددة في حياتها نتيجة لاستشراء الفساد الديني والخلقي والمالي والاجتماعي بشكل عام ، وقد انطوت أفرادها وأنظمتها على شيوع مبادىء الجشع والطمع والأنانية ، و أضحت شريعة الغاب هي السائدة في مجتمعاتها ، دون وازع أو رادع .

وعليه فإن علماء الأمة الإسلامية مدعوون لإبراز محاسن الإسلام ، وتطبيقاته العملية في شتى جوانب الحياة ، المبنية على الجوانب الخلقية في التعامل بين الناس ،وذلك لإعادة البشرية إلى رشدها ، والأخذ بيدها نحو الأمن والأمان ، وإلا فإن نذر الصراعات المحتدمة باتت قاب قوسين أو أدنى من التوسع لتشمل جميع القارات دون استثناء ، وذلك للترابط الحاصل فيما بينها بسبب ما يسمى بنظام العولمة .

إن عدم اكتراث النخب العلمية المسلمة وأهل الحل والعقد بالرسالة الملقاة

على عاتقهم في لم شمل المسلمين أولا و نشر قيمهم الحضارية والخلقية ثانيا يزيد من مسؤوليتهم أمام خالقهم عز وجل ، وأمام الأجيال المقبلة ، وتحقيق هذين الأمرين ليس سهل المنال ولكنه ليس بالأمر المستحيل كذلك .

ولا مجال لاعتذار المتقاعسين عن أداء هذا الواجب ؛ لأن الوسائل العلمية الجديثة تهيأ لطلبة العلم والباحثين جميع السبل لتقديم أنجح الوسائل في عرض مبادىء هذا الدين الخلقية والاجتماعية والحضارية ، لقد بات المسلمون يمتلكون تلك الوسائل ولم يعد أمامهم سوى العمل بجد واجتهاد لنفض غبار الكسل عن كواهلهم ، وفتح صفحة جديدة من حياتهم ، وهذا جانب من جوانب رسالتهم الحضارية في (إخراج الناس من الظلمات إلى النور) .

ولا شك في أن العمل الفردي بين المسلمين له فوائد على الصعيد الأسري، إلا أن العمل الجماعي المبني على المؤسسات العلمية والمجامع الفقهية الرصينة والجامعات العلمية الجادة يعطي ثمارا يانعة ، ونتائج طيبة على صعيد المجتمع ككل . وحماية هذه المؤسسات ورعايتها من جانب أولى الأمر ، مع الحرص على المتابعة والمراقبة الإيجابية كفيل بتحقيق تلك الأهداف التي ينشدها أتباع هذا الدين الحنيف، و هذه هي الرسالة الأولى ، أما الثانية فهي نقل هذا التراث إلى البشرية جمعاء وهذا مربط الفرس للأجيال القادمة ، إن شاء الله تعالى .

الخـاتمـة :

من خلال الاستعراض لما سبق ،يمكن استخلاص نتائج البحث كالآتي :

أولا : إن التسامح الإسلامي نابع من أصول هذا الدين القويم ،

ثانيا: إن معاملة المسلمين لغيرهم وعلى وجه الخصوص أهل الكتاب بالحسنى حقيقة واقعة لا ريب فيها، وهي استمرار لما أمر به المصطفى ﷺ..

ثالثا : إن النخب من أبناء الأمة الإسلامية مدعوة اليوم أكثر من أي وقت مضى إلى تحسين أسلوب الخطاب الإسلامي ، والتماس أنجع السبل في إيصال الصوت المسلم عبر الوسائل الحديثة ، بالطرق العلمية المبنية على التجربة ، والبعد عن الترهات والارتجال، وبيان الفرق بين نتاج حضارة الإسلام وغيرها من الحضارات .

رابعا : إن الحوار مع أهل الكتاب يجب أن يراعي الخصوصية الإسلامية من حيث عدم التفريط ، أو التنازل عن المبادىء السامية التي يحملها الإسلام إلى الشعوب الأخرى، على أن يكون المحاور المسلم على درجة عالية من العلم .

خامسا : دعوة أهل الكتاب إلى التحلي بالروح العلمية البعيدة عن الغطرسة في التعامل مع الآخرين ، حتى يصبح الحوار معهم ذا قيمة نافعة .

سادسا : إن الشراسة التي يبديها خصوم الإسلام في العصر الحاضر ، يجب أن لا تثني المسلمين عن مواصلة المسيرة المباركة في إشاعة روح التسامح والانفتاح لنشر تعاليم الإسلام الحنيف ، وإن بقية من أحرار العالم لا تزال تتطلع إلى المسلمين الغيورين لانقاذ البشرية مما يداهمها من أخطار مادية ومعنوية.

سابعا : إن التعاليم الإسلامية قيم حضارية يجب الدفاع عنها بالطرق المناسبة

لكل ظرف وزمن لتخليص البشرية من أنانية الإنسان و إزالة الكراهية من النفوس الحاقدة التي تحملها الأديان الوضعية والمحرفة .ولا يمكن لهذه المبادىء أن تبقى حبيسة أدراج مكاتب المؤتمرات ، والجامعات ، والمنتديات الإسلامية ، بل يجب على أولي الأمر ، وأصحاب القرار في هذه الأمة تحويلها إلى واقع يشعر به أبناء الأمة الإسلامية ، ومن ثم نشره في ربوع الأرض ليعم الأمن والسلام فيه .

ثامنا : إن التغاضي عن القيام بمسؤولية الدعوة إلى التسامح في شتى المجالات لهو الحافز الأكبر لخصوم الأسلام على النيل من قيمه ، ومنعه من تحقيق الأهداف التي يصبو إليها .

تاسعا: إن التعرض لشخص النبي ﷺ من قبل أهل الكتاب في عصرنا الحاضر، لهو الدليل القاطع على استمرار الحقد الدفين الذي يكنه خصوم الإسلام وأعداء الدين .وعدم اعتراف أهل الكتاب بأن الإسلام دين سماوي يجعل من الصعب الوصول معهم إلى حلول مقبولة من جانب المحاور المسلم .

عاشرا : إن جانبا كبيرا من تقصير المسلمين يتمثل في سوء عرض مبادىء التسامح مع غيرهم ، وإن عدم محاسبة المقصرين مدعاة إلى الاستمرار في التأخر، وضياع الفرص .وإن تدارك هذا الخلل واجب على جميع العلماء والدعاة أولا وعلى أولي الأمر ثانيا للنهوض المنشود بأعباء هذه المسؤولية .

والله الموفق ، و الهادي إلى سواء السبيل .

المصادر والمراجع:

١ـ أحكام أهل الذمة ، محمد بن أبي بكر، ابن قيم الجوزية ، ، ت: د. صبحي الصالح ، دار العلم للملايين ، ط : ٣ ، ١٩٨٣م ، بيروت ، لبنان .

٢ـ أحكام الذميين و المستامنين في دار الإسلام ،د. عبد الكريم زيدان ، ، ط : ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م ، مكتبة القدس ، ومؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان.

٣ـ الإسلام في عيون غربية ، بين افتراء الجهلاء .. وإنصاف العلماء ، د. محمد عمارة ، ، ط : ١ / ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٥م ، دار الشروق ، بيروت ، لبنان .

٤ـ الإسلام في نظر أعلام الغرب ، حسين عبد الله باسلامه ، الطبعة الثانية ، المطبعة السلفية ١٣٥٣هـ ، جدة .

٥ـ الإسلام والرسول في نظر منصفي الشرق والغرب ، أحمد بن حجر آل بوطامي. ط:٢، ١٣٥٣هـ ، المطبعة السلفية ، جدة .

٦ـ الإسلام والعلاقات الدولية ، د. محمد الصادق عفيفي، سلسلة كتب دعوة الحق ، العدد ٣٦، السنة الرابعة ، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٤م ، رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة..

٧ـ أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، ترجمة : د. حسن حبشي ، دار الفكر العربي ..

٨ـ الأموال لأبي عبيد، القاسم بن سلام ، ت: د. محمد عمارة ، ط:١، ١٤٠٩، ١٩٨٩م، دار الشروق ، بيروت ، لبنان..

٩ـ إنسانية الإسلام ، مارسيل بوازار ، ت: : د. عفيف دمشقية ، ص ١٩٦ ، ط: ١ ، ١٩٨٠م ، دار الآداب ، بيروت ، لبنان .

١٠ـ البداية والنهاية ، أبو الفداء ، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي ، ط : ١ ، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م ، دار أبي حيان ، القاهرة .

١١ـ تاريخ الطبري ، ط : ١٣٩٩هـ ، ١٩٧٩م، دار الفكر ، بيروت، لبنان.

١٢ـ تفسير القرآن العظيم ، أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي ، المكتبة الشعبية.

١٣ـ تهذيب الخصائص النبوية الكبرى ، جلال الدين عبد الرحمن أبو بكر السيوطي ، ت : عبد الله التليدي ، ط:٢، دار البشائر الإسلامية ،بيروت، لبنان ـ الجامع لأحكام القرآن ، محمد بن أحمد القرطبي ، ط: ٣ ، ١٣٨٧هـ ١٩٦٧م، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، مصر .

١٤ـ الجامع الصغير من حديث البشير النذير ، عبد الرحمن السيوطي ،و ط : الأولى ، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م دار الفكر ، بيروت ، لبنان .

١٥ـ الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، آدم متز ،، تعريب : محمد عبد الهادي أبوريدة ، ،ط : ٤ ، ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان

١٦ـ حضارة العرب ، غوستاف لوبون ،تعريب : عادل زعيتر.ط :١٩٦٩م، عيسى البابي الحلبي ، القاهرة .

١٧ـ الحوار مع أهل الكتاب ، خالد عبد الله القاسم ، ط :١ ، ١٤١٤هـ ، دار المسلم، الرياض ..

١٨ـ الخراج ، أبو يوسف، القاضي يعقوب بن إبراهيم ، مطبعة بولاق ، القاهرة..

١٩ـ دفاع عن الإسلام ، لورا فيشيا فاغليري ، ت : منير البعلبكي ، ط: ١، ١٩٦٠م ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان..

٢٠ـ الدعوة إلى الإسلام ـ ، توماس أرنولد ، ترجمة د. حسن إبراهيم حسن وأخرين ، ،الطبعة الثالثة: ١٩٧٠م ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة

٢١ ـ سلسلة الأحاديث الصحيحة، ناصر الدين الألباني ، ط : الرابعة ، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٩٥م ، المكتب الإسلامي ، بيروت، لبنان

٢٢ـ شمس العرب تسطع على الغرب، زيغريد هونكه، ص٣٦٤، تعريب ، بيضون،ودسوقي ،الطبعة الثامنة ، ١٤١٣ هـ ـ ١٩٩٣م ، دار الجيل ، بيروت، لبنان.

٢٣ ـ صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، أحمد بن علي القلقشندي ، ت: محمد حسين شمس الدين ، ـ ٣٢٤، ط : ١ ، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان .)

٢٤ ـ الصحاح ، تاج اللغة وصحاح العربية ، إسماعيل بن حماد الجوهري ، ت: أحمد عبد الغفور عطار ،

٢٥ـ صحيح البخاري، .ط : المكتب الإسلامي ،١٩٧٩م ،استانبول تركيا .

٢٦ـ صحيح الترمذي ، ت : كمال يوسف الحوت ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان .

٢٧ـ صحيح سنن أبي داود، الحافظ سليمان بن الأشعث السجستاني، ت: محمد ناصر الدين الألباني ، ، ط: ٢ ، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م ، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع ، الرياض .

٢٨ـ صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب البر والصلة والآداب ،ت : عصام الصبابطي وآخرون ، ط ١، ١٤١٥ هـ ، ١٩٩٥م، دار أبي حيان ،مصر .

٢٩ـ عمدة القاري شرح صحيح البخاري ، بدر الدين العيني ، المجلد الخامس ،ط: دار الفكر.بيروت ، لبنان .

٣٠ـ فتح القدير ، الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ، محمد بن علي بن محمد الشوكاني ، ط٢، ١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٤م ، مصطفى البابي الحلبي، مصر .

٣١ـ فتوح البلدان ، أبو الحسن البلاذري، ط : ١٤٠٣ـ ١٩٨٣م، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان ،

٣٢ـ القاموس المحيط ، الفيروز أبادي ، دار الفكر .بيروت ، لبنان .

٣٣ـ قصة الحضارة ، ول ديورانت ،، ترجمة : محمد بدران ، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م، دار الجيل، بيروت ، لبنان.

٣٤ـ لسان العرب ، أبو الفضل جمال الدين بن منظور، ٤ / ١٩٧ ، دار الفكر ، دار صادر ، بيروت ، لبنان .

٣٥ـ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي، دار ابن حزم ، ط١، ١٤٢٣هـ ، ٢٠٠٢م، بيروت ، لبنان .

٣٦ـ مختصر سنن أبي داود ، للحافظ المنذري ، ت: محمد حامد الفقي ،مكتبة السنة المحمدية ، مصر .

٣٧ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل ، بهامشه منتخب كنزل العمال ، ، ط: دار الفكر، بيروت ، لبنان .

٣٨. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير ، أحمد الفيومي ، ١ / ١٥٢، ـ: مصطفى السقا ، ، المطبعة الأميرية ، مصر .

٣٩. معالم الحضارة في الإسلام ، عبد الله علوان ، ، دار السلام ، ط: ٢، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٩٤م، بيروت ، لبنان.

٤٠ ـ معركة التبشير والإسلام ، د. عبد الجليل شلبي ، ط : الأولى ، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م ، مؤسسة الخليج العربي ، القاهرة.

٤١ ـ المغني، عبد الله بن أحمد بن قدامة ، مكتبة الرياض الحديثة ، الرياض .

٤٢ ـ مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج ، الخطيب الشربيني ، ط: دار الفكر ، بيروت ، لبنان .

٤٣. مقدمة ابن خلدون ، عبد الرحمن بن خلدون ، ت: خليل شحادة ، وسهيل زكار ، ط : ١، ١٤٠١ ـ ١٩٨١م، دار الفكر بيروت ، لبنان .

٤٤ ـ مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي ، ت : د. زينب القاروط ، ،دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان

٤٥. من روائع حضارتنا ، د. مصطفى السباعي ، ط : الأولى ، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م ، دار الوراق للنشر ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، لبنان .

٤٦. موسوعة الحضارة الإسلامية د. أحمد شلبي ، ط: ٨ ، ١٩٩٢م ، مكتبة النهضة المصرية ، مصر .

٤٧: نظام أهل الذمة ...رؤية إسلامية معاصرة ، د. محمد سليم العوا ، ١٣ / ٧ / ٢٠٠٥م. http://www.islamonline.net

Abstract

The Cultural Dimension of Islamic Tolerance Towards The People of The Book

(An Objective Study in Islamic Thought)

Dr. Omer Wafeeq al-Da aouq

Human history tells that every nation has its religion, values and heritage. One of the most everlasting Islamic values is tolerance towards other nations and peoples, and in particular the followers of other religions. God says: (Allah does not forbid you to treat kindly and act equitably toward those who have neither fought you in the matter of religion nor driven you out of your homes. Indeed Allah loves the just). Surat Al-Mumtahinah, V.8.

Prophet Mohammed (PBUH) propagated tolerance and called upon all Muslims to adhere to it in all their affairs. By obeying the Prophet's (PBUH) call, Muslims have given the highest example of the medial nation.

UNITED ARAB EMIRATES-DUBAI
COLLEGE OF ISLAMIC & ARABIC STUDIES

ACADEMIC REFEREED JOURNAL OF
ISLAMIC & ARABIC STUDIES COLLEGE

GENERAL SUPERVISION
Dr. Mohammed Abdul Rahman
Vice Chancellor of the College

EDITOR IN-CHIEF
Prof. Ahmed Hassani

EDITORIAL BOARD
Prof. Mohammed Abdallah Sa'ada
Prof. Omer Abdul Ma'aboud
Prof. Abdul Aziz Dakhan
Dr. Asma Ahmed Al Owais

ISSUE NO. 38
Zu Al Hajja 1430H - December 2009CE

ISSN 1607- 209X

This Journal is listed in the **"Ulrich's International Periodicals Directory"**
under record No. **157016**

e-mail: iascm@emirates.net.ae

UNITED ARAB EMIRATES-DUBAI

COLLEGE OF ISLAMIC & ARABIC STUDIES

Islamic & Arabic Studies College Magazine

An Academic Refereed Journal

38

Issue No. 38

E Mail iascm@emirates.net.ae

Website www.islamic-college.ae

م 2009/ هـ1430

Read In This Issue

The Almsgiving (Zakat) of the Money of the Boy and the Insane

The Almsgiving (zakat) of the Companies' Shares

Al Hafiz al-Birzali: His Efforts in Hadith and History

Al-Tizkar fi-Qiraa't al-Attar: A Study, Editing

The Cultural Dimension of Islamic Tolerance

The Effect of Oriental Thought on Arabic Grammar and Prosody.

The Connections of the Sentence Among Grammarians.

Places and Features of Articulation: Ibn al-Tahhan

The Psychological Effect of the Deletion of Answers in the Quran